

أشياء للذكري



محمد عبد الحليم عبد الله

أشياء للذكرى

وقصص أخرى

محمد عبد الحكيم عبد السيد

أشياء للذكرى

وقصص أخرى

الناشر
مكتبة مصير
٣ شارع كامل صدقي - الفيحاء

أشياء للذكرى

كان ذلك في الشباب الباكر والعمر لا يزال في أول عقده الثالث ..
لما مات أبي وأنا في الثامنة عشرة من عمري رأيت أمي تترنح من شدة
الصدمة . وبدا منظرها وهي في ثياب الحزاني تنظر إلى أطفالها بعينين مفكرتين
وأهدابها مبلولة — كأنه لسان متلعثم يدعوني إلى عمل شيء .. شيء لا نعرفه
على وجه التحديد لكنه حيوي على الرغم من أنه مجهول .

وفي هذا المساء وصل إلينا نحالي من الريف ليسأل عنا ، ووصلت بعده من
المحطة عربة نقل تحمل سمنا ودقيقا . وأثارت خبطته على الباب أشجانا كثيرة
لأنه ذكرنا بخبطة أبي . وبعد أن تكلمنا في شؤون المعيشة انتقل حديثهما إلى
شأن آخر كان أعظم وأخطر وأبعد أثرا في حياة الأسرة ، وذلك هو شأني أنا .
وأحسست أني وقعت بين شقي رحا حين التقت على وجهي نظرات أمي
ونحالي . كانت نظرة أمي إلى صلاحيتي للعمل ممزوجة بشك ورثاء ، أما
نظرة نحالي فقد كانت شككا خالصا ، وربما مشوبة بشيء من التصغير الذي
يضمه كل مكافح لكل متقاعد .

وقررت في هذه اللحظة التي أحسست فيها بنظراتهما أن أثبت صلاحيتي
لأى عمل حتى ولو كان جسمانيا صرفا كعمل الحمالين في المحطة . ولست
أغالي فأدعي بأن الموقف كان موقف تضحية وحب لأن حقيقته في هذه الليلة
لم تزد على أن تكون كرامة شخصية تهرسها سن الثامنة عشرة الفتية .

وكان نحالي مقاولا متوسطا فضمني لأعمل معه بالأجر .. ولأتعلم ا ..

و لم تحزن أُمى حزن الأمهات التقليدى إذا انقطع الأبناء عن المدارس لأننى كنت لا أشجع على التعليم .

و كان بدء الحياة قاسيا بالنسبة لى لأن أعمال خالى لم تكن فى المدينة .. كانت فى الريف .. حيث الأرض الواسعة التى لا يتعثر فيها البصر إلا إذا اعترضته شجرة . وتدور الأعمال حول شق الترع أو المصارف أو تطهيرها . ومعظم ذلك فى فصل الشتاء .

لكننى — شيئا فشيئا — ألفت الحياة الجديدة .. و كان مصدر الترفيه عنى فيها هو أننى شعرت بامتيازى بين من أعيش معهم ، وذلك يجعل المرء يرضى عن حياته حتى ولو كان فى سجن . ورأيت بلادا ووجوها وأشخاصا لا حصر لها . ومضيت ليلى فى أماكن تمنيت أن أقضى فيها بقية عمرى ، ومضيته فى أماكن خشيت على نفسى فيها الموت ..

و كان عملنا فى إحدى مديريات الوجه البحرى فى الموسم الماضى ، فى منطقة يبدو على أرضها التعب ، وتذكرت رقعتها التى يلون الملح سطحها فى عدة مواضع بوجه امرأة ريفية عارية سيئة الغذاء مريضة بـ « البلاجرا » . وقد بذل الفلاحون فيها مجهودات فردية لم تغن شيئا حتى تقرر إنشاء شبكة من المصارف فيها .

و كنت كبير المشرفين على العملية لحساب خالى ، وكانت حدود عملنا تنتهى عند قرية صغيرة كلها خصب ونعمة . وكانت هذه القرية هى الحد الفاصل بين الجلب والخصب ، ومنها كنا نشترى حاجاتنا ونحمل الماء النظيف .

وقامت على خدمتى فى الخيمة التى أستريح فيها امرأة عجفاء فى حدود الخمسين . اخترتها من بين العاملات لأننى اطمأنتت إلى وجهها الطيب .

وكانت يداها المعروقتان قادرتين على تقديم كل شيء نظيفا في حدود
الإمكان .. وكانت القرية القريبة التي تتعلق بها أبصارنا وقلوبنا لأنها حدود
انتهاء العمل . ويوم نبلغها سيستريح كل متعب ويرجع كل غريب .
وتخلفت في الصباح التالي فأحسست نحوها بشيء من التذمر . ولكنني
فوجئت بعد قليل بفتاة في مقتبل العمر تقف عند باب الخيمة وتقول والحياء
يعقل كل شيء فيها :

... أمي مريضة وقد أرسلتني لأرى هل تحتاج إلى شيء ؟
وجلست عند الباب تنتظر . وكنت مشغولا مع بعض الرجال في
حسابات ومشاكل فلما ألقيت إليها باهتمامي أعجبتني أنها صورة من البيئة .
كانت مثل هذه الأرض المحتاجة إلى إصلاح ، الخصبة في مواضع ، المجذبة في
مواضع . غير أن طابع البساطة والطيبة يغلب عليها كما غلب على أمها ..
وسردت لها موجز حاجاتي وتركتها وانصرفت لأنني كنت مطالباً بأن أمر على
مساحة من الأرض لا يقل طولها عن خمسة كيلو مترات . لكنني وأنا في
الطريق تذكرت شيئا نافها وبطريقة غير عادية .. تذكرت أنني لم أسألها عن
اسمها .

ولما رجعت عند الظهر وجدت كل شيء على الصورة التي طلبتها . وقبل
المساء عادت إلى القرية ولم تنس أن تسألني قبل إنصرافها بوجه مطرق
وصوت خافت : هل أريد شيئا ؟

وفي ضحى اليوم التالي توقعت أن تعود .. أن تعود الأم .. لكن الفتاة هي
التي جاءت .. وكانت علامات القلق بادية على وجهها الصغير المستدير
الأبيض إلى حد يجعل القلب يشفق عليها . وعندئذ سألتها عن شيئين معا : عن
اسمها وعن حالة أمها المريضة بالمalaria .

ولما انصرف الرجال بقيت وحدى فى الخيمة وكانت هى على مقربة منى تقضى بعض الشئون فى جو مارس المشرق الباسم.. وكنت إذا أردت أن أرى فعل الربيع بهذه المنطقة لا أنظر نحو الشمال لأن الأرض هناك جرباء فيها بياض الملح وسواد التربة اللهم إلا بعض أشجار تفرقت على الطرقات المتعرجة فى غير نظام . أما نحو الجنوب حيث تقع قرية الفتاة وحيث ستنتهى عملية الحفر فإننى كنت أرى بشاشة الريف وفعل الربيع فى ربوعه خصوصا على السور النبائى الأسود القائم حول إحدى حدائق الفاكهة .

وأحسست أنها تشعر بنظراتى وأن مثل هذا الموقف لم يكن فى حسابها من قبل . ولعلها لم تكن مقدره أن تلتقى بشاب مدلى النشأة يعرف على الأقل كيف ينظر إلى الفاتنات ، ثم أخذت أسأله عن أشياء شتى .. أسئلة يجمع بين وحداتها مناسبات تافهة المقصود منها وصل جبل الكلام . ولم أكن أقصد إلى شيء أبعد من معرفة تلك النفس الطيبة والشخصية البسيطة كما يحلو لنا أن نحاور الأطفال حين يدخلون علينا حجرات الاستقبال ونحن ضيوف فى بيوت آبائهم .

سألته عن أغنى رجل فى القرية . وعن أصناف الفاكهة التى تزرع فى الحديقة البادية لأعيننا ، وذكرت لها بهذه المناسبة أنتسى شممت فيها رائحة « التمرحنة » من شجرات عند أقدام السور . وعلمت منها أن أباه ميت وأنها أكبر أخواتها وأنها تعمل كما يعمل الرجال . ونسيت بعد يومين أو ثلاثة أن أحدا قبلها كان يقوم بشئونى . وخلقت فى جو عيشى المؤقت نوعا من الأنس يشبه الأنس الهادى الذى يخلقه هيرير القطة فى فراش الغلام . يرجع ذلك إلى الهدوء فيها والتمسح المطمئن .. تمسح الطيبين الذين يظنون الخير بكل الناس ويقولون لهم كل شيء بسرعة حتى للمسافر معهم فى القطار إذا أمنوا له

وركنوا إليه ا .

وكان يحيل إلى لدقة جسمها ونماء عودي أنني قادر على أن أحملها تحت
إبطى . وأتخيلها تبتسم وتناجى وتتسمح في صدري مثلما تفعل القطعة .
وصار ميلى إليها مشوبا بالخوف عليها كأننى أخشى على شيء أن يتحطم .
وبدل أن تحمل إلى أنباء أمها في اليوم السابع حملت إلى شيئا لم يخطر على
بالى ، حملت إلى مع الزبد والبيض والغسيل التنظيف قدرا من أزهار
« التمرحنة » ، ولما نظرت إليها متسائلا أجابت ببساطة من يفسر عملا
طبعيا :

— ألم تقل إنك تحبها ؟ ا

فقلت :

— نعم .. لأننى أحبها .

وهفوت إليها برفق وقبلتها في شفتها المرتعشة .

سافرت آخر النهار لمقابلة خالى فى البندر حيث قضيت ليلتى هناك ورحلت
فى الصباح إلى منطقة العمل ، وخيل إلى وأنا فى الطريق أن أسأل عنها أول من
يلقانى ، لأعلم هل جاءت اليوم أيضا ؟ لكننى لم أحتج إلى هذا السؤال فقد رأيت
شبحا يغدو ويروح على مقربة من مكانى عرفت فيه شبح الأم . قلت لها ببساطة
وإشفاق حين رأيتها :

لماذا لم تترتاحى وقتنا آخر ؟ ا .. أنت فى حاجة إلى الراحة ..

فقلت بخنان :

— معلش .. أصلك وحشتنى ؟



وهفت إليها برفق وقبلتها في شفتها المرتعشة

وتوقف الحديث عند هذا الحد كما توقف حضور الفتاة . ولم أعد أشم رائحة التمرحنة إلا إذا مررت أمام السور . وأخذنا نقترّب في عملنا من القرية قليلا قليلا وهذا يؤذن بقرب الانتهاء .. وتزايد غناء الفلاحين يوما بعد يوم فقد هيج وجدانهم قرب العودة وأخذوا يرددون الغناء جماعات وأفرادا .. وغطى على غنائهم صوت شاب كان على مقربة منى وكان يتغنى بالمحبوبة البيضاء ويرفع أمر هواه فيها إلى « قاضى الغرام » ، فتأملت الفتيات بأحماهن وكتمن بسماهن ورغرت على الأرض روائح أيقظت قلوبنا جميعا .. تشبه روائح الأيام القريبة من العيد .

وهمت أن أقول للأم شيئا .. همت أن أسألها عن الفتاة ولكننى استكبرت أو استحييت .. وضحكت حين فطنت إلى أن القلوب أعضاء تؤدى وظيفتها بشيء من الفوضى كما تؤدى بعض الحواس . فكما نسمع أصواتنا نود ألا تلتقطها آذاننا ، ونرى مناظر نود ألا تلتقطها أعيننا ، فإننا نحب أناسا نود ألا نحبهم !

وفي اليوم التالى قلت للأم :

— لا تتعرضى للشمس كثيرا حتى لا تعاودك الملاريا !

— هل سأموت قبل أن ينتهى أجلى ؟ !

فأحسست أن شيئا فى باطنى يسخر منى لأننى فشلت فى حيلتى ولم أكن مخلص النصيحة . كنت أريد أن أرى الفتاة لأعرف هل أحببتى على صورة

ما ؟

وحانت الليالى الأخيرة لإقامتى هناك ..

وكانت الخيمة قريبة من الحديقة فكنت أشم روائح التمرحنة كلما نشط

النسيم بعد هبوط الظلام . و حملنى دفاء الموسم على أن أبيت فى الخيمة ليلالى كثيرة . وكلما امتلأ أنفى بالعير تلفت فى الظلام أو تحت نور القمر كأنما (الفتاة) فى طريقها إلى تحمل معها تلك الرائحة لأنها لم تطق الصبر .. لكن أحلامى خابت ولم تزد على أنها أوهام .. ففطنت مرة أخرى إلى أن الحياء هو الزمام الطبيعى الذى يضبط رغباتنا وأنه البذرة الأولى فى حقول الفضائل .

ثم قلت فى نفسى ونحن نجمع حاجاتنا ونحزم أمتعتنا فى الصباح :
— « لماذا نقدر على أن نصنع لنفسنا ما نكره ونعجز عن العكس ، وحتى الكره حين يمسى ضرورة للقلب كحقتة الكافور فإننا نعجز عن تقسيده
لنفسنا .. لماذا؟ ! » .

ووقف القطار وقفة طويلة فى المحطة القريبة من منطقة العمل .. الصغيرة المحرومة من الرصيف الضالة بين الحقول المريضة .. وتزاحم الفلاحون يركبون بأمتعة متميزة معظمها فخوس وشوالات .. وكنت قد ركبت القطار من محطة سابقة حيث انتهت هناك بعض شعوفى .

وانتقلت الأصوات الصاخبة إلى داخل القطار بعد أن ركب أصعابها .. ولم يبق على المحطة إلا جمع قليل .. متبثر .. متفرق .. كان أفرادها فى وداع بعض المسافرين العاديين .

وقفت فى النافذة لألقى نظرة على الأرض البعيدة فرأيت آثار الحفر بادية بل خط الأفق وتذكرت أنتى تركت شيعين اثنين حيث كنا نعمل ولا أمل فى رجوعهما أبدا .

بعض ملابسى عند الأم لعلها نسيت أن تحضرها .. وبعض علاقات لى مع الفتاة نسيتها أو أغضبتها .

و كنت أسائل نفسي وبصرى يرف على الأرض المختلفة الألوان : هل
سأراهم ثانيا ؟ ! وحضرتنى صورة البحار الذى ترك قلبه على الميناء ..
وأقلع ا

لكننى رأيتها فجأة تحت نافذتى .. إنها الفتاة .. كانت تجرى كالقطة
البيضاء لتدركنى قبل أن أسافر ، وخطفت منها والقطار يتحرك ورقة
ملفوفة ..

وكانت فيها ملابسى مغسولة .. وأزهار من الترحنة .. وعلى البعد بين
الوجوه والأيدى أضواء ابتسامات ذاهلة مغلصة .

انجمنہ الحیب

عندما يختصر أحد الرفيقين رحلته ويترك الثاني ، تبدو المسافة أكبر طويلاً والأشياء أكثر كآبة . خصوصا إذا كان الرفيقان على وئام ، والنهاية التي يسعيان إليها تشغل بال كل منهما على حد سواء .

حدث أن تخلفت عنى زوجتى بلا استئذان .. ماتت ولم يكن يبدو عليها أنها ستفعل ذلك ، كل الدلائل كانت توحى بأنها ستعيش . كانت تباهى بكل ما فيها حتى بالقدرة على عدم النوم . لكننى تبينت بعد أن انقضى كل شيء أنه لا علاقة بين البقاء والصحة فإنها لم تشك إلا في ليلة قضيناها مقسمة بين العناية بها والضحك عليها واستعادة الذكريات الحلوة .

ثم وجدنا أنفسنا آخر الأمر مضطرين إلى استدعاء طبيب .. ولم يستطع حضوره أن يغير شيئا من النهاية ، فتخلفت زوجتى وتركتنى في عرض الطريق .

ألم يحدث لك مرة أن فقدت حافظه نقودك ؟ إنك تقف فجأة حيث أنت كأنما تعين موقعك من المدينة وتعين الاتجاه الذى ستمشى إليه .

هذا هو نفس ما يحدث لنا عندما نفقد أحبائنا . فقد وقفت على الطريق وطالت وقفتى إلى حد الجمود .. إلى حد أننى كدت أنا والبيت والأولاد والخادمة والأثاث أن نتحول كلنا إلى لوحة مرسومة أو قطع في متحف الشمع .. وأخيرا ، وبعد بضعة شهور ، قررت أن أتحرك .

وشبعت بكاء في غرفتى الخاصة قبل أن أقاطع أحزالي .. وأحرقت عليه سجائير ، وشربت عشرين فناجلا من القهوة ، ولما دخلت على الخادمة

بالفئجان الأخير نادتنى وكأنها تذكرنى بما نسيت : إنهما حضرا يا سيدى ..
حضرا منذ وقت طويل .. فقلت لها : ناديهما ليدخلا على الآن .
ودخلا على هما الاثنان على التوالى .. ابنى وبتتى ، من أجلهما قررت أن
أعيش ، دخلا على بترتيب بحيثهما إلى الدنيا .. « شكرى » أولا وبعده
« سعاد » ولم أكن أنحشى شيئا قدر وقوع بصرى عليها لأنها كانت تشبه
أمها .. وخيل إلى أنها أصبحت بعد موتها تتكلم بنفس طريقتها . والحزن قد
أخذ منها أكثر مما أخذ من أخيها « شكرى » . ولعل هذا المظهر قد جعلها أكثر
قربا إلى نفسى فى هذه الأيام . فلقد كانت متألمة وتريد أن توارى ألمها حين
ترانى ، أما ابنى فقد كان على العكس يحاول بجهد غير مشمر أن يلبس قناعا من
الأسف كلما وقعت عينى عليه .

وعلى أى حال فقد جلسا بجانبى على الفراش وكنت لا أزال مستقيما .
وتفرست فى الوجهين العزيزين الذين يخصاننى من سائر الناس وقلت لهما فى
حزم من يصدر قرارا يخاف أن يكون هو أول من يؤاخذ على عدم تنفيذه :
... أستطيع أن أوكد لكما اليوم يا ولدى أننى سأبدأ صفحة جديدة .
فولدت على فم شكرى ابتسامة علفت به إلى مدى طويل . أما سعاد فقد
بدا فى عينيها الشك . إنها مصابة بنفس مرضى ، وهى لذلك تستطيع أن
تعرف نقطة الضعف فى . ففىها رقة قلبى ورهافة إحساسى وسرعة تعلقى
بالناس والبكاء على القطة إن فارقتها ، لذلك كنت أبتهل إلى الله ... فى كل
فرصة يشعر فيها الأب أن دعاءه مجاب ... أن يجنبها كل كبوة وأن يقبها
الميزات . أما شكرى فقد كان « جسمانيا » جسدا خالصا فى كل
إحساسه .. ولا داعى لأن أستطرد الآن . فلما بدا الشك فى عيني فتالى التى
لم تتجاوز الخامسة عشرة أكدت لها ، وأنا أمص سيجارىتى مصا ، أننى حقيقة

سأبدأ صفحة جديدة منذ اليوم . قلت :
— لن ترياى متجههم الوجه بعد هذا المساء . وثقا أننى أقول شيئا قد
تأكدت من سهولة حدوثه .

قالت سعاد وعلى وجهها أمارات الدعاء بالنصر :
— توصلت إلى طريقة ناجحة فى النسيان يا أبى ؟
— نعم .

وضحكت أنا ورفعت صوتى بالضحك آملا أن أسمع رنته كى أصدق أننى
أضحك :

— نعم يا فتاى . ونعم يا بنى .. لنجتهد دائما حتى ننسى أن نذكر سيئات
الذين نريد أن ننساهم . (ثم استطردت كأننى أمزح) وقد كانت أمكم
كثيرة السيئات .

وحاولت أن أتذكر سيئة مفيدة فلم أجد لها سيئة كبيرة ، وكادت التجربة
تؤتى عكس ما يطلب منها ، فأحسست فوران الدموع ، لكننى تماسكت
واستطردت أقول لهما :

— حين يموت الأب تجد الأم نفسها مضطرة إلى أن تكون أما وأبا ، وحين
تموت الأم يقع نفس الشيء . (وهززت رأسى) نعم يقع نفس الشيء .
ونظرت إلى سعاد فوجدتها فى نصف وزنها ، أوردتها الزرقاء تبين فى الخد
والعنق ، وطوق فستانها الأسود يصنع مع شعرها إطارا حسنا لأنوثتها
الجديدة . ومطلبت شفتى وأنا أنظر إلى الاثنين كأنما لم تقع عيناي عليهما من
قبل . ثم قلت :

— أما أنت يا بنى فابن سبعة عشر عاما ، وأعتقد أنك عما قريب ستستغنى
بجناحيك فلا معونة ولا إرشاد .. لكن المشكلة اليوم بالنسبة لى ولكما أنتما

الاثنان هي : هل من الممكن أن أكون لكما أبا وأما ؟ .. من ناحيتي أنا أعتقد أن الأمر في حدود الإمكان لأنه لا يبدو مستحيلا . وأما من ناحيتكما ، فذلك موضوع آخر ! !

ونظرنا نحن الثلاثة بعضنا إلى بعض وابتسمنا ، وبعد أن تسوارت الابتسامات أدر كنا نحن الثلاثة أيضا أن التجربة في ذاتها كبيرة ، بصرف النظر عن جنبنا لبعض وعن أن الصراحة ممكنة ومفيدة ، وكان رأس شكري مشغولا بسؤال دار هو نفسه وبكل تفاصيله في رأس أخته سعاد :

— هل من الممكن حقا أن يأخذ الولد والبنت رأى أبيهما في مشكلة حب تعترض طريق قلبيهما ، وبكل صراحة ؟ !

الذي جرت عليه عادات الناس من قديم الزمان هو أن يلجأ الاثنان إلى الأم لأنها — من قديم الزمان أيضا — ذات الحنان الذي يقدم للأبناء حتى الطعام الممنوع بأمر الطبيب . وكثيرا ما تشير الأم برأيها الشخصي أو تنقل رأى الأب على أنه رأيها والأب من وراء الستار ، أو يقوم بدور الملحن فتبقى المهابة وتنجح المسرحية .

كل هذا جرى في خواطرنا سريعا ، ولم نصدر إزاءه حكما ، بل تركنا للزمن — الذي رجونا أن يمنحنا السلوان — أن يصدر أحكامه دفعة واحدة . ثم سلك الحديث بنا مسالك أخرى ، فتكلمنا عن الجامعة والمدارس ، وعن تخزين البيت ، وعن ملابس الموسم القادم ، وعن حاجاتنا إلى نخامة صغيرة زيادة على الكبرى ، وعن مسئولية سعاد منذ اليوم عن ملابس أبيها ، وأخيرا طبعت على جبين كل منهما قبلة مزدوجة وانصرفا . وانصرفت إلى التفكير في شئوني بعد أن تركاني في الغرفة .

وظهرت شجاعا أكثر من المنتظر ، صابرا أكثر من المألوف . بعد حديث هذه الليلة ، وتنحت الخادمة العجوز عن تدبير شئولى الخاصة وقامت بها سعاد. وقد برعت فيها بعد قليل، وكانت تكوى لى قميصى وتربط لى عنقى ، وأحيانا كانت تصر لاهية ضاحكة على أن تسرح لى شعرى أو تلمع لى خذائى .. وكانت أعمالها الخنون تعمل فى قلبى شيئا غامضا ، أشبه ما يكون بعملية إخلاء السكن . كأنها تنظف قلبى من ذكريات أمها لتحل محلها شيئا جديدا فأحس كل صباح حين تدخل على حجرة نومى لتؤدى هذه الواجبات أن ابنتى بارعة فى خدمة « الرجل » وأنها ستمنح نفسها بكل جزئياتها لمن تتزوجه !!

وعلى مائدة العشاء كل ليلة يطول الجلوس ويطيب الحديث وأنا فى الوسط دائما أشغل عرض المنضدة وشكرى إلى يمينى وسعاد نحو اليسار . أحدثهما بمتاعبى اليومية وآمالى المؤقتة وأمنياتى الدائمة ويفعلان هما نفس الشئ بنسب متفاوتة .. فتحدث الفتاة بوجهها الطلق وعينها اللتين لا تخفيان شيئا وتضحك عن أسنانها اللامعة البياض . أما الشاب فقد كان صندوقا مغلقا تقريبا . قبلته أخيرا على ما فيه لأنه من المستحيل أن تغير طباع شخص ما من الأساس . وكنت أغفر له ميوله الجسمانية نظير شئ واحد ، هو أنه دائما من الطلبة المتقدمين .

وفى ذات مساء سيطر على حديثنا التعليق على حادثة من الحوادث اليومية التى تحمل فى طياتها مأساة وعبرة وإن قرأها الناس ومطوا شفاهم ثم انصرفوا إلى مطالب حياتهم غير حافلين فى الغالب ..

قصة رجل انتحر لأنه اكتشف أن زوجته خائنه ..

كنا نتعشى سمكا ، وكان الأكل لذيذا ، وكان الجو شديد البرودة والهواء

يهمس في الشبايبك ويلوى ذوائب الأشجار في الشارع .
ورأيت شكري يتكلم برزانة ، هادىء الأعصاب ، ثاقب النظرات ، وفي
يده عمود فقري كامل لسمة أكل لحمها يحمق فيه كأنه يعد أضلاعه ،
قال :

— لقد زاد المغفلون في الجبانات مغفلا جديدا بعد انتحار هذا الجبان ا .
فحملت سعاد فيه برهة ولهداياها مشرعة كأنها رماح ، ثم انفجرت
بالضحك فجأة وبطريقة لم أعهد لها فيها ، فلما نظرت إليها نظرة أب حبيب
قد خاب رجاؤه في ابنته الحبيبة قامت عن المائدة وذهبت إلى الحمام لتغسل
وجهها بالماء البارد عسى أن يرد لأعصابها هدوءها . وكان وجه شكري في
هذه الأثناء منتفخا في كل ناحية . عروق رقبته ، وخذاه ، وأرنية أنفه ،
وعيناه ، وخيل إلى أن أذنيه كذلك قد التهيتا واحمرتا وورمتا ، فأدركت
بشعور الوالد أن بينهما سرا ، وأن كشفه لا يروق الشاب ولا يشرفه ..
فأخذت آكل في صمت ، وكلما أرسلت نظرة متفحصة نحو ابنتي حاد عنها
كأنها سكين .

ثم رجعت سعاد بعد أن غسلت وجهها بالماء البارد .
وجلست على المائدة من جديد وعلى ثغرة نحرها العميقة الواضحة في نهاية
الترقوتين آثار تدل على قرب هبوب العاصفة ، عاصفة الضحك مرة أخرى .
وحاولت أن أنخلع على الحديث لونا من الجدوية العميقة فأجعل ذهنيهما
يشتغلان ، وبذلك تزول ثورة الضحك من أحساس الفتاة . فقلت :
— حكمة من الله ! .. كثيرا ما نتطلع إلى معرفة الغيب ، ونجهد أنفسنا
لكشف الغطاء عنه .. في حين أنه قد يكون من دواعي السعادة أن يظل
الإنسان جاهلا بالغيب مثل ..
وأردت أن أكمل قائلا : « هذا الزوج .. » .

فإذا بنظر سعاد يتقضى فجأة على وجه أخيها ، وإذا بها تفرق من جديد في ضحكها العنيف .

وزاد ارتباك شكري . ولم أحاول أن أنظر إلى وجه أحد منهما ، وقامت الفتاة فغابت عنا وأيقنت أنه من المستحسن ألا نجتمع نحن الثلاثة الآن ، فمما لا شك فيه أنها قد وقفت منه على عيب .. فدخلت إلى غرفتي ، وانصرف كل منهما إلى مذاكرته .

وفي الصباح عادت الصحف من جديد تعلق على حادثة المنتحر .. وتسفه أن يكتب الإنسان « مذكرات » .. إن المذكرات الصريحة كثيرا ما تجر المشاكل حتى بعد موت أصحابها . فقد اكتشف المسكين أنه عاش مغفلا معها خمسة عشر عاما .. ونحن نحزن إذا غلبنا في صفقة بمقدار خمسة عشر قرشا ، فما باله بعد أن اكتشف أنه قد سخر الناس منه خمسة عشر عاما . ليس هذا فقط . بل المسألة قد استحالت إلى مسألة ميراث .. ما معنى هذا ؟ نعم مسألة ميراث . فهل هؤلاء الذين سيأخذون ثمرة كده طول الحياة بعد موته . هم أولاده ؟

قلت في نفسي : « أعوذ بالله » معذور .. إننا نغطي عيوننا عن المنظر القبيح أو نرحل عنه . وقد وجد هذا الرجل نفسه مضطرا إلى الرحيل لأنه لم يستطع أن يضع على عينيه غطاء ا .

وفي المساء ، ونحن على العشاء ، نظرت سعاد إلى أخيها بعين مكسورة ، فعرفت أنها لا تطيق أن تتحمل ما في نفسها . وأحيانا يرى الطبيب أن العلاج الوحيد للخراج هو شقه بالمشروط .. وقد رأيت هذا بالضبط فيما يتعلق بالموقف بين الأخوين ، فأظهرت طرف المشروط حين وجهت الكلام لسعاد محاولا أن أشجعها على الحديث ، قلت بركة بالغة :

— ماذا هناك يا حبيبتى ؟

فأجابت بعد تلكؤ وفي صوتها رنة لقيمة :

— أبدا .. لا شيء يا بابا .. شكرى يريد .. أن ... أن يكتب
مذكراته ! ..

وعادت عاصفة الضحك كما كانت أمس ، لكنها لم تقم عن المائدة ،
واستولى الغضب على وجه الشاب ، وبدأ كل عضو فيه كأنه وادم خصوصا
أرنبه أنفه . فقد انتفخ منخراه بحيث يستطيع البصر أن يرى خياشيمه ..
وأدركت أنه يجب استعمال المشروط ليهي الأمر ، فسألت بحزم :

— ماذا هناك يا أولادى ؟ .. إننى لا أكاد أفهم شيئا ؟ هل من اللائق أن
تستعمل الرموز والإشارات بين الأبناء في محضر آبائهم ؟ !
واحمر وجه سعاد ، وسكتت ، وكأن مرحتها قد انطفا فجأة ، وظهر
بشكل مباغت هيجان شكرى . وقال :

— لا شيء يا بابا . لا شيء مطلقا . كل ما فى الموضوع أن سعاد ظنت لى
ظنا نحسبنا حين صعدت إلى السطح فرأت إحدى الخادومات واقفة على مقربة
منى .

وخيل إليه أن ازدياد الهيجان خير وسيلة للدفاع ، وخير ضمان لصنور
الحكم بالبراءة ، فأخذ يقول :

— هل يليق هذا من فتاة صغيرة بالنسبة لأخيها الكبير يا أبى ، إننى ..
فقاطعته ووضعت للأمر حدا إذ قلت برفق :

— ولماذا تبدو عصيبا هكذا يا شكرى ؟ لم يسبق لى أن رأيتك غاضبا .
ثم هناك شيء آخر . إن الأب الذى لا يملك فكرة واضحة عن طباع
أولاده يعتبر جاهلا بكل ما يخصه فى الحياة ، ربما كان يعرف ما يخص غيره ،

لكن المهم هو أن يعرف ما يخصه شخصيا .
وسكت .. ولم يتكلم واحد منهما .. وظللنا في صمت هدأت فيه نفسه
شيئا ما . فعدت أقول من جديد :

— ثم ما حكمنا على هذه المرأة التي كشفت مذكراتها عن نحتها ؟
حكمتي عليها أنها شجاعة .. شجاعة أيضا بجانب أنها خسيصة .. يجب أن نزن
الحسنات والسيئات ونقول ما لنا وما علينا .

وانقضت الليلة . وظل الإعراض بين الأخ والأخت مسيطرا على العلاقة
بينهما أكثر من أسبوع .. وكنت ألحظ ذلك بشكل واضح ، وأعلم علم اليقين
أن ابني ذو علاقات بنساء لا يصلحن للحب .. ربما يصلحن لأن يلقاهن
الشباب بين فترة وأخرى ، ثم ينساهن بعد أن يخرج من العتبة .

لكنني على الرغم من ذلك ، حاولت أن أجرب فتح هذا الصندوق ..
حاولت أن أعرف هل من الممكن أن تسود الصراحة بين الأب وأبنائه ؟
فانتهزت فرصة إنفردنا فيها نحن الاثنين وجعلت أحدثه عن مستقبله .

كان يدرس الفلسفة . وكان غريبا أن يبدو جسمانيا هكذا على الرغم من
أنه يدرس الفلسفة . وكان غريبا أنه من المتقدمين .. وفي بعض الأيام كان
يبدو شديد الصفرة والذبول إلى درجة توجع القلب . فانتهزت هذه الفرصة
وجعلت أتحدث معه . عن ماذا ؟ عن ذكرياتي وأنا طالب صغير وحيد في
المدينة .. أرغب ثم أندفع ولا آكل ما ينبغي أكله .. بل أجعل لبنود الملذات في
مصرفي المحل الأول .. وبعد أن خضت تجربة معينة في موقف حرج تعلمت
كثيرا . هكذا قلت له . وتغيرت نظرتي للموضوع خصوصا بعد ما أحبيت .
وضحك شكري وهو ينظر إلى الأرض ، كنا ونحن صفار تتخيل عظماء
الرجال في مكانة أرفع من أن نجعلهم يعملون أعمالا يستوى فيها العظماء
والسوقة . بل الإنسان والحيوان . وقد كان ابني — ككل الناس —

لا يتصور أباه غارقا في ورطة حب . فضحك وهو ينظر إلى الأرض . عندئذ رفعت صوتي كأنما ليصل إلى أذنيه فيسمع :
إننا قلوب قبل أن نكون شيئا آخر يا ولدي .. والذين يحسون الحب عن طريق قلوبهم أكثر سعادة من سواهم .
وسكت لحظة وتنحنحت قبل أن ألقى القبلة اليدوية .
واستطردت من بين شفתי المتسمتين :
* * *

— هناك طريقة للحب لا تعدو أن تكون مثل أكل الثعالب للأرانب .
تحس بواسطة الفم والأسنان فقط ، وهناك طريقة أخرى تعلمها الإنسان من النحلة .. ثم طورها وحوورها وزاد عليها .. تعلمها حين رأى النحلة تحوم حول الأزهار في البرية .. تغني لها بالطنين .. وتحقق حولها بالجناحين . وتعلو وتهبط .. وأخيرا تأخذ رشفة من رحيقها .. ثم تنكب عليها !
وسكت ، وضحكت . ولم يتكلم شكري فعدت أقول في لطف :
— الأرنب وصل إلى جوف الثعلب ، والرحيق وصل إلى جوف النحلة لكن .. قد اختلفت الطريقة ، تماما ١٢ .

ولم أسمع إلا دقات الساعة في البهو تعلن الوقت وكأنها مستعجلة ، ثم جلبت حلوة رعناء تسبق سعاد — عادة — قبل دخولها على أبيها .
فقال شكري بطريقة سريعة شأن من انتهر فرصة وأعلم الآخر :
— يجيل إلى أنك صدقت الاتهام القبيح الذي سمعته من سعاد !
وقام من مكانه صندوقا مغلقا كما دخل صندوقا مغلقا من ساعة .
وكان من الممكن لو أن زوجتي موجودة أن تعرف حقيقة ما يفعله

ولدها ، إن مفاتيح الأسرار تعلق في ضفائر النساء في الريف ، وتودع في حقائب السيدات في المدن ، ففضول المرأة وصبرها على الاستقصاء يجعلان منها جاسوسة صالحة .

قلت في نفسي : « لن أصل إلى ما كنت أصبو إليه . لحكمة عظيمة خلقنا من ذكر وأنثى . من رجل وامرأة .. من أب وأم .. لكل واحد منهما ظل من نوع مخصوص يفيد في مرحلة من مراحل العمر ولا شك » .

وعندما خطر لي خاطر التجسس ذكرت الحادثة المضحكة التي وقعت عندنا في الديوان ، حين أفاق الموظفون على عراقك في البهو فيه صراخ امرأة وصياح رجل وضرب وعض . فلما سألنا عن الخبر تبين أن زوجة أحد السعاة اكتشفت بعد شهر واحد أن زوجها تزوج عليها . قالت على نفسها أن تفضحه هناك في مقر عمله ، لأنه عجز عن حمل المعزى فذهب واشترى الثانية .

ثم عدت أهمس : نعم نعم .. مفاتيح الأسرار في ضفائرهن في الريف وحقائبهن في المدينة .. هن أقدر منا على هذه العملية .. لكن ماذا عساي أن أصنع له ؟

لم يكن قلقي عليه كبيرا إلى درجة مخيفة ، ونحن نغفر العيوب للتاجسين للأذكاء والأغنياء ، غير أني أريد لقلبه حياة راقية ، ثم تذكرت أنه ليس من الضروري أن يكون الناس كلهم شعراء ولا واضعي ألحان . فصممت على أن أحافظ على بنائه ، على كيانه الصحي أولا وأخيرا . فذلك غاية ما يدخل في إمكانى .

الأيام أشد عدو لعاداتنا ، كما أنها أعز صديق لها ، فقد تعودت ألا أرى وجه زوجتي إلى مدى عامين من وفاتها وتعودت من جديد أن أرى سعاد وهي

تحسر الغطاء عن كفى في الصباح وتناغميني بوجهها العذب :
— انهض يا أبى العظيم ! .

هكذا كانت تدعوني .. وكانت المسألة دعاية أول الأمر ثم انسأقت فيها .. وكل فتاة بأبيها معجبة .. ولو كانت ولدا لحاكتنى في كل ما أفعله .. كانت تنزل فيما أصنعه حتى طريقة نفضى لرماد السيجارة . وتقول في خفة البنات اللينات : « لو كنت رجلا يا بابا ما اخترت إلا أن أكون هكذا » . وتنسقى لي المنديل في جيب سترى ، وتقبل مفرق شعرى كأنها حبيبة ، وتحب أصدقائى حبا جما ، وتكره أعدائى ، حتى الذين لا تراهم .

ومرة من المرات عملت سعاد عملا اقشعر له بدنى وقف شعر رأسى ، كان زميلى في الديوان منافسا خطيرا لى .. مسموم السلاح لا يتورع عن ارتكاب أى شىء في سبيل أغراضه .. صورة مشوهة كريمة لعصرنا المادى الجاف الذى أصبحت الغايات فيه تبرر كل الوسائل .. وكان رئيسنا رجلا مولعا بالرقص .. أقصد أنه يجب الذين يكثرون الوشوشة والتحدث والتملق .. وكان هذا الزميل مزاحما لى باستمرار على باب هذا الرئيس ، وكثيرا ما نال مآرب عجزت أنا عن نيلها لأننى لا أحسن استعمال الوسائل التى يتقنها ، وكنت أعلق على هذه الموضوعات بحسرة بين أبنائى وأفلسف الموقف .. غير مظهر ندما .. فأنا قد احتفظت بشىء عزيز وهو « شخصيتى » فلم أشتريها شيئا .. أما هو فقد اعتبر نفسه كاسبا .. بل مشتريا لما ناله بضمن بخس ، لأن الشخصية والعرض والكرامة مسائل تقديرية عند الناس .. فهناك من يقبلون الأقدام ، وهناك ناس يصابحون وهاماتهم مرفوعة إلى أعلى .. الدنيا سوق .. وكل شىء فيها بضمن !! .

وعجبت حين رأيت سعاد تقول لى ذات مساء :

— اسمع يا بابا .. أنا لم أر هذا الرجل الذى وصفت لى طباعه لكننى أستطيع
أن أصفه لك .

قلت :

— ممكن .. إن الحب والكره قادران على تجسيد الأحباب والأعداء ،
ممكن يا سعاد ، لكن إذا نجحت فمعنى ذلك أنك رائعة الخيال .. والعواطف
عندك فوق المستوى العادى .. هلمى إذن .

فرفعت وجهها إلى السقف ، وبدت عيونها كأنها تحت مغناطيس
والعروق الزرقاء اللازوردية ممدودة فى جيدها وعلى خدها ، والحلية الذهبية
الصغيرة ساكنة على الصدر ، وجعلت تقول :

— أسمر يميل إلى الصفرة .. عريض الذقن .. كثير الهمس .. لا يبتسم إلا
إذا وقع فى حرج .. أسنانه صلبة وفى أنفه عقدة وشعره دائما قصير ..
لا يتبه للساعى الذى يرفع له يده بالسلام ، ويعتبر التفاتة من هو أكبر منه
حفلة تكريم خاصة .

واستغرقت فى الضحك ، وأقسمت لها أن كل هذا صحيح .. وبعد أن
ذهبت النشوة خفت على فتاتى ، خفت عليها من قلبها 11 .
ثم غيرت الأيام عاداتى فى شيء آخر .

إننى — وكنت فى الخمسين — لم أشعر بانصرافى عن الحياة .
عن ماذا فيها ؟ 1 . عن الحنين إلى الأتس ، ولا أريد أن أقول الحب ..
وأعدى أعداء الحب هو المشاغل ، المشاغل المادية الدنيوية التى تستغرق
الوقت وتهلك الأنسجة وتترك المرء آخر اليوم يأوى إلى الفراش وكأنه
قتيل .. والحصان لا يدخل مرحا إلى الإصطبل إذا كان عائدا من سفر أو
مربوطا فى عربة سحابة يومه الطويل 1

ولما بدأت مشاكل تخف أحسست بالحنين إلى مجهول .. في القلب فراغ
تركه السلوان .. و « شكرى » أو شك أن يتم دراسته و « سعاد » فتاة لطيفة
يخيل إلى أن كل الناس يعشقونها مثل عشقى لها .. لا تزال في المرحلة الثانوية
تمشى بطريقة عرجاء لكنها متصل !

ثم .. من هذا الذى لا يتغير ؟ كل الناس يتغيرون ، لأن الحقائق « مواقع
غير ثابتة » على سطح الأرض التى تدور .

كنت فى مكتب « المساعدات الاجتماعية » المستول عن العمل فيه . وأمثال
هذه الوظائف سلاح ذو حدين ، يستطيع الخيرون فيه أن يفرقوا فى عمل الخير
حتى آذانهم ، ويستطيع الشريرون فيه أن يفرقوا فى عمل الشر حتى آذانهم ..
فأيدينا نحن موظفى هذا المكتب ترفع الستائر عن بلايا الأسر وأسرار
البيوت .. ولما كان من الطبيعى أيضا أن يكون المترددون على أبواب المكتب
معظمهم من السيدات .

والفقر والحرب والغربة والوحدة من القوى الطبيعية لا تصمد أمامها
الفضائل .. فكم رأيت كثيرا من الأمهات يذلن بعيونهن وعودا جبارة
للرجال فى سبيل قضاء مطلب .. ولذلك أصبت بحساسية شديدة نحو أبنائى
منذ شغلت هذه الوظيفة .. مثل الحساسية التى تصيب العيون فى فصل
الربيع .. كنت أتخيل كل امرأة زوجتى وكل ولد أو فتاة هم أولادى أنا ..
وأنكب على العمل بطريقة تثير الشك أو الرثاء ، حتى قال لى أحدهم يوما :
إنك أشبه بالطبيب الذى يريد أن يشفى علل نزلاء قصر العينى القديم والجديد
بضربة واحدة .. مستحيل يا سيدنا .. ارحم نفسك .

وشيا فشيئا تبدلت عاطفتى ، ولو أن أصحاب الحاجات لا يرحمون ..
فإن عجزت كارثتهم الحقيقية عن تحقيق ما يطلبون ، صنعوا لها حواشى

محزنة ، وطرزوها بالدموع ، وأقاموا الدليل على صحتها ، حتى تسلين قلوب المستولين ، فيصرفوا المساعدة المطلوبة .

كان في قلبي فراغ تركه السلوان ، وحينين إلى المجهول بعد أن خفت المشاكل .. ونحن نتطلع إلى الدنيا بعين الذين يودون ألا يفارقوها ، خصوصا إذا كنا معها في « حالة صلح » نرضع أحد ثديها بأفواهنا ونتحسس بأكفنا ثديها الثاني ، من فرط الحب والرغبة في البقاء .. وأحسست في هذه الأثناء أن قلبي معلق في هدف ، وأن أى رمية ولو خرقاء لا بد أن تصيبه في الصميم وكان الوقت صيفا ، ومعظم الموظفين في الإجازات حين دخل على الساعى يستأذن لسيدة تريد أن تقابلنى .. وبطريقة آلية أذنت لها . ولحت أذيال ثوبها الأسود وهى داخلة من الباب .. ولما رفعت بصرى لم أجد في وجهها أى شىء مما تتوقع ، فلا تستطيع أن تتصور أنها محتاجة ، ولا أن تتصور أنها في أزمة مالية ، بل تحكم عليها فوراً أنها امرأة نصف متوسطة الحال والجمال .. كانت في طريقها إلى الميناء أو المحطة لتودع حبيبها العزيز فتحرك القطار ، أو أفلعت الباخرة قبل وصولها هى بقليل ، فأخذت طريقها عائدة إلى البيت والوله والشروود ينهشان جماها نهشا .

وحين بدأت تشرح مأساتها كان الاختصار والصدق والتعبير تملأ حركاتها . ولن أنسى دمة كانت تطل وترجع وكأنها من سحابة شحيحة .. أو تقلب كفهها وهى تشرح كأنها تعاتب الزمن في شخصى .. وكدت أمد يدي فأربت على خدها وأعتذر إليها عما جرى .. وكدت مرة أخرى أحس بالحجل كأننى شريك للقدر في مأساتها والحكم عليها بالدق على كل باب . وقدمت لها زجاجة « كازوزة » مثلجة وأنا أهدئ من روعها ، وجلست ترتشفها وكأنها لم تشرب ماء قط في مكان خارج بيتها ، ولم تحاول أن تثبت



فكم رأيت كثيرا من الأمهات يبذلن بعيونهن وعودا جبارة للرجال في سبيل قضاء مطلب

(أشياء للذكرى)

نظرتها في بعد أن فرغت من القصة ، بل جعلت تنظر نحو كفيها الصغيرتين فأجبرتني على أن أطيل إليهما النظر، حتى تنبت لطول ما نظرت إلى أن في معصمها « غويشة » وحيدة من الذهب حكمت الحكاية بالنيابة عن صاحبها مرة أخرى .. من ترددها على الصاغة لتبيع قطعة وراء قطعة لتشتري ما يحتاج إليه الأحياء .

ووعدها خيرا وأنا صادق ، وانصرفت في حذائها الواطى فلم أسمع وقعه على الأرض ، لكن قلبي خفق عقب ابتعادها ثم ظل يخفق ، فقلت في نفسي :
— لعلها مأساة ! ! .

وبعد العشاء قدمت لنا سعاد عنيا مثلجا ، ثم نوعا من « الجلاس » صنعتها بيديها وكانت فرحة فخورا بأنها نجحت فيه .

وذكرني اللونان من الحلوى بأناس من المحرومين ... وعلى التحديد ذكرت المرأة التي كانت عندي في المكتب .. وخيل إلى لو أن الموازين تترك على حريرتها فلا تعبت بها يد الموازين لقاتلت لي ابنتي ما سبق أن قالته لأنحيا .. ولستخرت مني .. ألم يخفق قلبي خفقة حب .. إن هذا مريع : يجب أن تكون الملامة آخر ما نقدمه للآباء .. آه ! ! فقط لو أنهم كانوا صرحاء معنا .. ما لنا كالأطباء لا نستطيع أن نعالج أبناءنا أحيانا ؟ أهل هذا لفرط جبننا فيهم ؟ يدنا تهتز لو حاولنا أن نمسك المشروط .. من العدل أيضا أن تقول لي سعاد : « اكتب مذكراتك يا أوى » وأن تسخر مني كما فعلت بأخيها حين ضيغته متلبسا في السطوح .. المهابة والثقة للآباء وفيهم .. والصراحة من الأبناء .. هذا هو كل ما يحتاج إليه البيت الجديد .. آه يا ربي ! !

وقبيل المنام شغلت هذه المرأة أوقاتي ، شغلتها بمشكلاتها .. أولا : فقد كان زوجها أحد المدمنين وقد فقد رأس ماله ، ثم فقد رشده ، ثم صار مفقودا هو

شخصيا بعد ذلك .. خرج ولم يرجع منذ سنوات . وقضت المحكمة
بفقده . وأصبح الأبناء يتامى والزوجة أرملة مع احتمال أنه لا يزال يتنفس
الهواء الطلق .

وما كينة الخياطة لم تعد تنفع فقد انصرف الناس عنها إلى ذوات المقص
الذهبي .

وهي كما قالت عن نفسها : « كما ترانى يا سيدى .. رجلى على حافة الهاوية
إن لم تجذبني يد من الخلف فإننى سأسقط » . وكانت تنظر وتبتعد إلى المحبرة
السوداء .

وشغلتنى ثانيا بما سيحدث إن لم تجذبها يد من الخلف ، ستقابل أول شاب
فى الطريق وتقول له : خذنى معك إلى بيتك .. وربما سرقت حافظة نقود
ذات ليلة لأن عرقها ربما لا يكفيها .. ثم تدخل السجن . ويحاول الصغار من
بعدها أن يسلكن طريق العيش . فيقعن فى الأخطاء التى لا صواب لها .
وتتهددت فى الظلام .. واستغفرت الله .. وقمت ففتحت شباكاً ليدخل
الهواء فيغلبنى على أفكارى فأنام .

ولم تنجح سعاد فى امتحان آخر هذا العام .. وبكت كثيرا وضحكت منها
كثيرا وجلس شكرى ينظر إليها فى شماعة .. وجعلت بعدئذ أفكر فى الفرق بين
الشخصين . بين الذين يشغلهم إحساسهم بكل ما حولهم عن أن يتقنوا شيئا
واحدا وبين الذين ينحصرون فى شيء واحد فلا يدركون سواه .
وبعد أيام عادت إلى المرأة .

كنت قبلها أسأل نفسى : هل أتمنى أن تعود ؟ وأجابتنى نفسى
بصراحة : أى نعم .. لكننى أود ألا أراها ثانية .. كنت خائفا من ضعفها
وصدقها وبساطتها .. والقلب مستريح من خفقات الهوى منذ عشرين عاما ،

متخذًا من حرير الحب الذى صنعته زوجته شرنقة رقد فيها .
و كنت خائفاً على قلبى أن يتلف حرير الشرنقة ثم بيعت من جديد على
شكل فراشة بيضاء الألوان .

ودخلت فى ثوبها الأسود مسيلة العينين بعد أسبوعين من اللقاء الأول .
جلست أمامى دون أن تنبس بكلمة .. كان ريقها يبلو جافاً وهى تبحث
عنه .. وبنظرة أدركت أن يدها الخالية من «الغويشة» .. الأخيرة . وسألت
نفسى وأنا أكاد ألث :
— حسناً .. وبعد أن باعت الغويشة الأخيرة ماذا تصنع ؟ . إنها لا تملك

إلا أن تبيع يدها الخالية لأنه لم يبق لها سواها .
ثم نظرت إليها فرأيت على ملامحها مثل آثار السهر أو القلق أو الحزن ، أكثر
من المرة الماضية ، جعل يعيش على شحم السنام فى صحراء الدنيا ، لا حول
ولا قوة إلا بالله . ونطقت أخيراً :

— اسمى يا سيدتى ، إن الوزارة ستمنحك إعانة عاجلة ..
وسكت ، فرأيت كأن وجهها يضيء بشمعة بعد شمعة ..
— لكن ! !

فهزت رأسها تستفهم . فقلت :
— الإعانة أو المساعدات مثل روح النوشادر نبيه بها المغنى عليهم
ولا نبحث بها المولى .

وسكت لأعطيها فرصة تقول شيئاً ، لكنها لم تتكلم .. وعادت الشمعات
التي كانت أضيئت منذ وهلة إلى الانطفاء شمعة بعد شمعة . فحز ذلك فى قلبى
وأدركتها أقول :

— لذلك ، فإنك مادمت تبيدين الحياطة فمن الممكن أن نلحقك خياطة

بأحد الملاجئ حتى تنتهي أزمة حياتك .
فشكرتني بفرح ونهضة قائمة ، وفوجئت وأنا أسلم عليها بأنها مالت
على يدي فقبلتها في تبتل ، فكأنما رمت عليها جرة ، واختفى إحساسى بكل
شيء إلا بأنها إحدى الغربقات .

*** ** *

وعلى الرغم من غيابها فإننى لم أستطع نسيانها .. وكثيرا ما استعدت عنوان
بيتها من ذاكرتى فوجدتني أحفظه .. وأتطلع إلى شيباتها فى الشارع ثم أسأل
نفسى فى الفترات التى يماكم فيها العقلاء أنفسهم فى الخلوة ، على النزوات
والهفوات ما وقع منها وما كان على وشك الوقوع — أسأل نفسى عما عسى
أن تصنعه سعاد أو شكوى ما دما نحن — فى هذه السن — لاننجو من
مناوشات العواطف .

والذى جعلنى أنساها أكثر وأكثر شيء بدت تباشيره على وجه الفتاة .
بتى العزيزة . كانت تسهر لتذاكر وكنت أنهض خلال الليل فألقى عليها
نظرة من فتحة الباب .

لم تكن على مايرام .. صارت على غير ما كانت .. فى عينيها أسى غامض
وعلى وجهها سهوم شديد .

ومن حقنا أن نتجسس لنعرف ماذا يفكر فيه أولادنا .
فتفتحت أدراج مكتبها وهى فى الخارج .. إلا واحدا كان مقفلا بالمفتاح
فألفت له مفتاحا ثم سلطت عليه ، وكنت أشعر على الرغم من مشروعية
عملى بأننى لصر . كأننى يومئذ كنت أطل على ابنتى من ثقب الحمام .

ولكن !!

إنها الضرورة... إن سعاد تخطو نحو التاسعة عشرة من عمرها .. يجب أن أحرسها ، خصوصا إذا نامت ، وليست فورة الشباب في عمر الأبناء إلا فترة من فترات النوم لأنهم يصنعون فيها أشياء لا يتذكرونها إذا ما استيقظوا . في الدرج صور تذكارية لها في إحدى الرحلات ، وصورة أمها العزيزة عليها بلبل قديم كأنه دموع جفت ، و « خمسة وخمسة » من الخرز الملون أهدتها الخادمة العجوز كانت تعلقها على صدرها قديما ولن تستطيع أن تعلقها على نهدها اليوم .. وصورة لإله الحب « كيوييد » وهو يطلق سهمه الذهبي . كتبت تحتها سعاد بخطها جملة « الله أكبر » ١١
ودفتر جميل مهندم كتبت على غلافه بخط أنيق كلمة « مذكرات » ١٢
فخفت قلبي بعنف .

آه .. إن الذين يصلون بسفينة أولادهم إلى الشط الأخير سالمين ينبغي أن يموتوا سعداء .. حتى ولو ماتوا عضوا عضوا . لأن غرق أحد الأبناء في بحر الحياة يلقي في القلب عذابا لا يعرفه إلا الآباء ١
هل أفتح الكراسي فأرى ما فيها ١٢

وخيل إلى أن عينيها الساذجتين تقولان لي لا تتجسس على يا بابا.. إنني أحب .. فأغمض عينيك إن الذي عندي لا يقال إلا للأمهات ١١ لكن هذا ليس منطلقا . وفتحت الكراسي فإذا بها بيضاء ، لا تزال بيضاء بكرا لم تخط فيها يدها حرفا وتمنيت أن أمسك القلم فأملأ لها الصفحات بفيض من حياة سعيدة ، منيرة بالحب والطهر والسعد والنقاء .. ثم أمسك هذه الصفحات وأقدمها إلى القدر فيعتمدها ، فيكتب في آخر كلمة « موافق » تماما كما يفعل الرؤساء في الدواوين ، أو الوزراء في المكاتب فتسعد « سعاد » .. وهكت عيناى ، وأقفلت درجها وخرجت .. وبعد عودتها من المدرسة قبلتها خمسين

مرة كأنتى أعتذر سرا عن ذنب عملته سرا .. عن التجسس عليها ! .
ومرضت الخادمة الكبيرة راعية بيتنا ومدبرته ومن تقوم على حاجات
الأولاد كما تقوم الأم .. ونقلتها إلى مستشفى بأجرة اسمية فقد حرصت على
الرغم من أننى لست غنيا أن أوفر الراحة فى اللحظات الأخيرة لامرأة وفرت
لنا الراحة عشرين عاما كاملا .

وترتب على ذلك أن قامت سعاد فى البيت وتخلفت عن المدرسة وأصبحت
مسئولة عن كل شىء .. ورأيتها خلال هذه الأيام فى حالة لم تعجبنى ، عصبية
حاددة سريعة البكاء .. سألتها مرة كأنما لأثير شجونها وحبها وكل مشاعرها
القديمة :

— مالك يا سعاد لست مثل زمان ، لا تنسقين المنديل لبابا ، ولا تغازلين
بابا ، ولا تربطين له الكرافاتة ؟ لماذا يا حبيبتى ؟
وكان عتابا مثيرا فبكت وابتسمت فى وقت واحد :
— أنا يا بابا ؟ أنا .. أنساك ؟ !

وارتمت فى حضنى وأنا واقف فكأنها طفلة .. ومالت تقبل كتفى فلمت
شعرها من أعلى .. ورأيت فى عينيها دموعا حين رفعت رأسها إلى .
ودخل علينا « شكرى » ذات مساء شاحبا باكيا .. كانت الدموع فى
عينيها غريبة المنظر .. بكى الشاب الذى لا تندى عيناه ، لأن الخادمة ماتت فى
المستشفى فأحسست ليلتعد أن جزءا كان متخلفا عن الموت — وكان لا يزال
حيا من آثار زوجتى قد أدر كته المنية هذا المساء ، فبكيت ، لأن الدنيا من
حولى بدأت (تغير المناظر) كما يفعلون على المسرح بين فصل وفصل .. وكان
معنى هذا هو طول إقامة سعاد فى البيت والحكم عليها بالتعثر فى الدراسة حتى
نعثر على « مدبرة » جديدة .

وفي هذه الأثناء ظهر لنا شبح الحب مرة أخرى وجاء في وقت مناسب ،
فلقد دخلت على المرأة التي وصفتها لك .. طفت على سطح الماء والبحر هائج
فتعلق بها بصرى .

كنت خارجا من المكتب قبل العمل الرسمي لطارىء شخصى فإذا بي
أجدها أمامى ، وهى تقول :
— كنت ذاهبة إليك ! ! حظى حسن .

ووقفت أحلق فيها . وبلا شعور مددت كفى الاثنتين لأسلم عليهما بهما .
وبهتت المرأة وسلمتنى يدها ، ولم تحاول أن تسحبها منى .
وأفقت على تدفق الدم فى عروقي وعلى بقايا الشرنقة الحريرية التى أتلفها
قلبي وخرج منها على هيئة فراشة ، وسرت فى الاتجاه الذى أقصد إليه وسارت
جنبى تحدثنى عما لقيته فى الملجأ . لقد عجزت عن الدفاع عن نفسها ..
الحوادث أعظم منها .. وشايات وورغبات وناس يعيش بعضهم على لحم
بعض .. ولذلك فقد فرت بنفسها قبل أن يفوت الأوان ! !

وعرجت إلى شارع جانبي عمدا ، كنت أسمع فيه وقع خطواتي ، ولم
يكن الطريق مزدحما وإن كان رأسى جد مزحوم . ولما تلاصقنا فى إحدى
الفرص لمرور عربة نقل عريضة كانت تفرغ الأثاث فى أحد المنازل ، مددت
يدي ، فأمسكت أطراف أصابعها كأني أريد أن أنجو بها من خطر ، ولم
أتركها بعد ذلك ولم تحاول هى استردادها منى . غير أن نظراتنا أكدت أن
الذى فى الصدور شيء متبادل وأن أوقات استعدادها للنوم كانت مبللة كنفس
أوقاتي .

— إلى أين نحن ذاهبان ؟ !

وجاءنى صوتها الخائف يسأل هذا السؤال حين وصلنا إلى شارع رئيسى ،

صوت ملون بالحبرة ، فيه ما أستطيع أن أصفه بأنه استسلام أو بأنه إغراء
فقلت لها وكأننى شاب على عتبة التجربة الأولى لم يزاولها بعد :

— ليس فينا من يعزف طريقه ١١

— كلنا تائهون ١٢

ولم أجد ريقى ، فأومأت برأسي ايجابا .. نعم .. نعم .. كلنا تائهون .
أوصيتها أن تعود إلى المكتب مرة أخرى — قبل أن نفترق — حتى أدبر لها
عملا أكثر أمانا وضمانا . ولو بوساطتى الشخصية .

وعدت إلى البيت نصف محموم . مصيبة . أنا وبنتى . وربما ابنى ، نجتاز
تجربة واحدة ؟ وإذا شغلنى شأنى فلن أشعر بشعون الآخرين ؟ لا .. لن
أسمح للحياة عندنا أن تستحيل إلى رحلة مدرسية كل شخص فيها يحمل متاع
نفسه وهمومها .

وأقفلت على حجرة نومى وظللت أقرأ وأفكر حتى كدت أنفجر .
ووجدنا مدبرة للبيت بعد ذلك .. امرأة متوسطة العمر نصف زنجية قاسية
الملاح فطساء الأنف . تستطيع أن تخيف « شكرى » فلا يخلق لها
مضايقات . كم هو مستريح . ذلك الإنسان الذى لا يحس خفقان قلبه إلا
إزاء الكوارث . الكوارث وحدها . أما الذين تهز قلوبهم هفات النسيم
ووسوسة الشجر فاتهم معذبون .

وعادت سعاد إلى المدرسة وتحسن مظهرها كثيرا .. هل كانت تلقى
حبيبها فى الخارج ؟ لم أحاول مرة أخرى أن أفتح درجها المغلق . إن الظروف
لم تحوجنى بعد . وكلما ألح على قلبى حبي الجديد تذكرت الجمرات التى
تمسكها فتاتى بأصابعها . كل شئ فى الدنيا نزاوله بكثرة نكسب فى مزاولته
مهارة .. الحب والحرب واللعب بالنار . ومن ينجو من ورطة بعد ورطة

يصفه الناس بالمحنك الجرب .

لأول مرة بعد بضعة أعوام تأخرت كثيرا في الخارج .. عدت إلى البيت بعد منتصف الليل كدر النفس مثقل الصدر كأننى أكلت حفنة من التراب ، وركبني هذا الإحساس كأنه الشيطان بعد أن خرجت إلى الطريق العام من المنزل الذى اختليت فيه مع « عزيزة » . هل تعرف عزيزة ؟ إنها المرأة التى جاءت إلى فى مكتب المساعدات . قضينا خمس ساعات معا نسيت فيها كل شيء إلا أننى من طين .. وضحكت فى الداخلى بكل كيانى وبكيت فى الخارج بكل كيانى . وعلى الرغم من مرارة الندم فإن حلاوة ما قدمته إلى كانت لا تزال عالقة بشفتى . ولأول مرة فى تاريخ وجودى أحسست الحلو والمر فى حلقتى جنباً إلى جنب . وفى الطريق أيضا شككت فى أنها امرأة خداعة محترفة لثيمة تلبس فوق قميص « المومسات » طرحة بيضاء لكن كل ذلك كان عاجزا عن أن يمحو ذكرى ساعات قطعت من الزمن بمقص روحانى جسدى ، شيطانى ملائكى . جعلنا أحيانا فى شفافية النور وأحيانا فى قتامة الزفت !!

وكان كل شيء نائما فى البيت حين عدت . إلا الخادمة السوداء قدمت إلى عشاء خفيفا وعيناها نائمتان . وكانت ثقيلة الأرداف أقدامها مثل الجمل فحرمت عليها أن تلبس فى رجلها شيئا حتى لا تهدم السقف على السكان . وبعد أن دخلت حجرتى لم أستطع أن أنام إلا بعد أن قررت أن أجعل أول ما كان بيننا هو آخر ما يكون لأن ضميرى كان فى عنفوانه ساهرا . يكيل لى الصفعات .

وتبادلت تحية الصباح مع أولادى ورأيت ابتسامة النفاق ووجه الكلب على ملاهى فى مرآة مقابلة وأنا أسرد عليهم تفاصيل زائقة لسهرة الليلة

الماضية ، وقبل أن أخرج إلى عملي فتحت درج سعاد بشوق لم أستطع قهره .
لم أنظر إلى شيء مطلقا إلا إلى دفتر المذكرات ، لم يكن أبيض في هذه
المرة . بدأت الفتاة تكتب فيه بصراحة عن التفاهات . وعن المهم . كانت
تغطي الكلام .

١٥ يناير :

ليس في البيت من أنس إليه . حتى بابا انصرف عني . بعد موت الخادمة
العجوز أصبحت وحيدة . شكري أخى لا يزيد على أنه ماكينة ، عقل
إلكتروني يعمل بالكهربية . وهو يدرس الفلسفة . بلانيلة .

٢٨ يناير :

أنا أحب بيت صديقتي زينب . أحس في الشتاء أنه دافئ وفي الصيف أنه
شاطيء . ياه !! لماذا ؟ لا أعرف . يا بابا .

أحب الربيع . غير أني فيه كثيرة الأحزان ، لماذا أبكى وأنا فرحانة . أسأل
من ؟ شكري يدرس الفلسفة ولا يفهم شيئا . سألته فلم يعرف . سأسأل
زينب . هل كانت « ماما » تعرف الإجابة عن هذه الأسئلة ؟ وما أضيقت
الدنيا وما أوسعها ؟

٢٥ مارس :

لن أذهب إلى بيت زينب مرة أخرى ، هناك أشياء مخيفة ، ولو أن قلبي
سيغلبني .

٣٠ مارس :

تركته يحمل لي تمرين الهندسة ، وظلت تعصر الليمون ساعة كاملة !!
ولما دخلت علينا لم يقل لها أحد منا أنك غبت ، أنا وحيدة وأريد أن
أبكي .

لن أكتب شيئا بعد الآن !

وأقفلت الكراسية وأعدت إغلاق المكتب وخرجت أجرة همومى .
ولاحظت فى الليالى التالية أن سعاد تكثر من ذكر زينب وأنها تحوط اسمها
بتقديس وثقة ، وحاولت جاهدا أن أجعل ذهابها إلى هناك قليلا وبقدر
الضرورة لأننى لا أعرف أختها . ربما كان شابا شريف المسلك تخلل حياة
بنتى وأحلامها بشكل لا يقبل التراجع ، ولو كانت أمها موجودة لعرفت
دخيلة نفسها لكننى ما دام الموقف مفروضا على سآحاول .

ولم أحاول أن ألقى « عزيزة » . مهدت لها سييلا جديدا للعيش فى أحد
المصانع التى تجهز ملابس الأطفال وبأجر لا بأس به .. وكنت شديد الحنين
إليها لأنها استطاعت أن تقنعنى ليلتخذ أننى لازلت كائنا حيا قادرا محبوبا . وهذا
هو الفرق بين امرأة وامرأة عند أى رجل كان، لكنها كانت تعترض طريقى بين
حين وحين ، عندئذ أنسى وعودى وأستعد لنوبة من الندم بشيء من عدم
المبالاة كما يستعد التلميذ الصغير للعلاقة مقدما وهو يشب فوق سور المدرسة
باحثا عن اللعب ، لكن هذا الشر كان يذكركنى بسعاد .

ولما نجح « شكرى » فى الليسانس وأصبح فيلسوفا ، تعمدت أن أقيم حفلة
شاي صغيرة وتركت سعاد تدعو إليها زينب وأختها .

كنت أريد أن أراقبه عن كثب وأستشف داخلية نفسه وأرى فى صمت
ماذا تقوله عيون كل من الحبيبين .. أمها حبيبان ؟ يحتمل .

وفى جو مشبع بالود جلسنا إلى المائدة . وتركت سعاد كرسيا خاليا كان
من الممكن أن تجلس فيه امرأة غائبة لعلها الآن عظيمة الفرحة ، هى أمها !!

ولم تكف الفتاتان عن الضحك ولا الثرثرة . وكان نظر زينب عالقا بشكرى يتفحصه بعشق من يتردد جدا قبل إصدار الحكم . أما سعاد و« ماهر » فقد كان الهواء بينهما مشبعا بكل ود . ورأيت الشاب رزينا مرهف الإحساس أكبر من سنه بكثير ، لم يفتر عن التحدث عن الموسيقى ولا الفن بشكل جعلنى أحترم الرأس الصغير الذى لم يتجاوز بعد عشرين عاما . أما ابنى فقد كان يأكل بكل جوارحه بضمه على المائدة وبعينه الفتاة التى تجلس تجاهه .

وتركتهم وحدهم وانصرفت مرتاح النفس ، لأتبع لهم شيئا من الحرية . وظلت فتاقى فى هذه الليلة تمشى فى حذاء على الكعب وكأنها بهلوان . كل جارحة من جوارحها تفيض بالسعادة . ماذا يفعل فينا الحب يا إلهى ؟
وتمت ملء جفونى ، هأنذا قد جعلت الخيط أكثر قوة ومتانة وأصبح « ماهر » ، يعرفنى ويعرف ابنى ، وفتاقى . وذلك خير من المجهول . وبت أحلم بالسطر الذى ستكتبه سعاد فى مذكراتها بعد ذلك ، ماذا سيكون ؟
وكثرت مشاغلى « الديوانية » وزحمنى التفكير فيما عسى أن يكون العمل الذى سيشغله « شكرى » بعد تخرجه ، وغابت عنى « عزيزة » كأنها نسيتنى ، وكان الحنين الغامض المشوب بالحب والندم يهز أوصالى هذا .
حتى دخلت ذات صباح مكتب فتاقى .. وفتحت الدرج .. وقلبت صفحات مذكراتها فإذا بها قد كتبت فيها :

٢٠ يونية :

بابا .. هل قرأت هذه الصفحات ؟ ما لعينيك يا بابا تبدو فيهما المعروفة أم يا ترى قلوب الآباء تحس بكل شيء ؟
على كل حال شعرت الليلة كأن يدا حنونا أحكمت على الغطاء فى ليلة

شياء وأنا نائمة ، وكان اللعاف منحسرا عن جسمى .

اتجهت فى صمت إلى إدارة الكلية حيث قابلت موظفا هناك .. موظفا إداريا . وسألته عن بعض معلومات أجبني عنها بكل سهولة . وكان يعرف شخصى . وقد قابلني باحترام .

وفى الطريق إلى ديوانى مرة أخرى كنت أفكر فى أحسن ما يعمل فى أمثال هذه المناسبات ، وآخر النهار نزلت فاشتريت شيئا .

وانقضى يومان ، ثمان وأربعون ساعة ، وإذا بزئب داخله إلى مسكننا تتحدث مع سعاد بصوت عال مرح فكه جميل عن مفاجأة غريبة وقعت فى بيتهم وتركت أنحاها « ماهر » يدق كفا بكف ويقرر من هذا اليوم تغيير نخطته . ما الحكاية ؟

كان الوقت عصرا حين دق جرس بابنا فوجدنا على الباب ساعيا من إحدى الشركات يحمل بين يديه صندوقا باسم ماهر ، فلما تسلمه وانصرف الساعى فتحه ونحن ملتفون حوله فى حذر ، فإذا الصندوق يحتوى على حزمة من الأسطوانات ، سمفونيات غربية وألحان شرقية . ثروة ضخمة تغذى ماهر خمسين سنة ومعها بطاقة باسم والدك يا سعاد يهنئ فى « ماهر » بعيد ميلاده وكان لا يذكر هذا التاريخ إلا مصادفة . فلما اكتشف أن رجلا مهذبا اكتشف تاريخ ميلاده العظيم « هاء . هـ . هـ . هـ . هـ » نزل سريعا فاشتري الفطائر والورد والزئبق وجلسنا نحتفل به فى مرح على نغمات الموسيقى الحلوة .

وسألتنى سعاد :

— وكيف عرفت تاريخ ميلاده يا أبى ؟

فضحكت لعينيها الضاحكتين وقلت لها :

— وهل هذه مشكلة ؟ من سجلات الكلية !

ومنذ هذه اللفتة التي ذكرت فيها هذا الشاب بشيء يخصه وكان هو غير مهم به . أصبحت العلاقة بين الأسرتين أشد قوة . وتسلفت إلى أذهانهم احتمالات عن علاقات كثيرة . ثم فوجئت بأن شكري مرشح لبعثة دراسية في « باريس » حيث يدرس الفلسفة هناك .

على مائدة الشاي اجتمعنا مرة أخرى . كان ماهر يتحدث عن الفن والسحر والحب في البلاد التي سيرحل إليها شكري ، وهو ساهم يأكل مفكرا فيما لا يخطر على بالنا ، هو وحده الذي يعرف ! ؟
قلت لولدي :

— ستعود متزوجا من هناك ، لكنني أخاف أن تتزوج أول امرأة تلتقي بها . أرجوك أن تفكر في هذه الشؤون بطريقة أخرى . لقد كسبت الجولة الأولى بنجاحك فاحرص على الثانية بعلاقاتك .

وبتنا وأصبحنا ، ثم ركبنا إلى الإسكندرية لنودعه على الميناء . وهناك فوجئت بوجود ماهر ، وصنع الوداع في عيني ما لم يصنعه فقد الإنسانية التي بكيت عليها كثيرا . وغاب قلبي عن وطني برحيل ولدي عنه .

وفي الإسكندرية زارني ماهر في اللوكائنة التي نزلت فيها ، وجلسنا نتسامر نحن الثلاثة أنا وهو وسعاد .

وفي إحدى الحلوات سألتني بحياء يحمل كثيرا من الرجولة :

— عمى .. سأكمل دراستي في العام القادم وأنا أحب سعاد ، فهل

تعاوننا يا عمى ؟

فربت على كتفه وقلت له :



وصنع الوداع في عيني ما لم يصنعه فقد الإنسانية التي بكيت عليها كثيرا

— ليسعد كما الله .

وفي أثناء رجوعي إلى القاهرة أحسست على الرغم من فرحي أنني فقدت اثنين دفعة واحدة . ووصلنا وقت الضحى ، ونمت وقت الظهر . ولما استيقظت عصرا ركبت بطريفة لاشعورية إلى مكان لم أدخله منذ ستين ، كنت مشتاقا إلى إنسان يشاركني . الدنيا من حولي مرة أخرى « تغير المناظر » كالحركة التي تسود خشبة المسرح بين فصل وفصل كما يقولون . وهناك في إحدى الجبانات التمسست الطريق إلى قبر زوجتي وكانت الشمس مضيئة للغروب ، وعلى القبر صبارة جافة ، ولم تسلم دموعي وإن كان قلبي يدق . قلت :

— كان يجب أن تكوني إلى جوارى منذ الآن . . هل تسمعيني أيتها الحبيبة ؟ لقد عملت آخر ما يستطيع الرجال عمله ، لكن اغفري لي هفوات ربما غفرها الله !!

وهنا ، مسحت دموعه انسابت على خدي .

هكذا أبدا

— « إلى مهمومة .. ليته يكلمنى !! » .

تهددت ثم نظرت عبر النافذة .. والوقت صيف والندى على الحشيش
والعصفور فى الحديقة آخذ فى التغنى بأول أنشودة .

أما هى فلا تزال فى فراش النوم تريد أى شىء يحرك قلبها .

وحينما يقع الخلاف بينها وبين هذا الإنسان الذى تحبه بقدر ما تكرهه ،
وتكرهه بقدر ما تعطيه ، وتعطيه رغبة فى حرمانه ، وتحرمه رغبة فى
إعطائه .. فى هذه الفترات تبيت وتصبح وهى مختلفة مع نفسها . تبرم القرار
وتنقضه بنفس الطريقة التى تحبها وتمتقته ، ثم هى بعد ذلك تكون عرضة لأن
تهزها حادثة حب جديدة ، هكذا أبدا ..

ليته يكلمنى لكن الوقت لا يزال مبكرا نوعا .

وبعد لحظة دخل إليها — بانحراف — شعاع جانبي من النافذة القبلية
المطللة على الحديقة . كانت هى منذ قليل قد رقدت فى فراشها معكوسة .
قدمائها على الوسادة ورأسها على الناحية الأخرى وذكريات من ليلة أمس
الأول لا تزال فى خاطرها كأنها بقية حلم لم يستطع نور النهار تفريقه . ليلة
اختلفا فى المطعم بعد العشاء وبلغ الأمر بهما إلى حد أنها رفعت صوتها فسمعها
ناس كانوا يتلكأون على الموائد . صوتها الذى لا يرتفع حتى فى ساعات
الغضب ، حتى بين جدران أربعة :

« إنه غاضب هذه المرة .. ليته يكلمنى ! » .

ثم اعتدلت فى رقدتها فعاد رأسها إلى الوسادة .. وابتسمت فى نفسها حين
أدركت أنها وضعت رأسها حيث يضع الناس رءوسهم فى العادة ، لكنها
سألت نفسها سؤالا :

« وأين أضع قلبى » .

لم تكن واثقة من أنه في مكانه الحقيقي .. كان قلعا حيث أودعته ، مثل
المفصل المخلوع لقد استعانت بكل ثروتها من الحياة والمعرفة لتبين موقعها من
هذا الإنسان . تعطيه وهي أشد النساء رغبة في حرمانه وتحرمه وهي أشد
الناس رغبة في إعطائه ، لكن ثروتها من الحياة والمعرفة ضاعت وأفلست ..
وبقى الموقف كما هو مزيج جيد تمشي الحلاوة والمرارة منه إلى النفس على قدم
المساواة تماما .

واستقر الشعاع المنحرف — أخيرا — على جهاز التليفون ، الرائد على
منضدة قريبة من الفراش : الأسود الساكت كأنه زنجي أحرص ، ولمع الجهاز
تحت الشعاع كما يلمع الأبنوس في الوقت الذي ظلت فيه عينها الذابلتان
تفرسان فيه بلا أفكار .

ولم تدر أنها نامت .. لأن التأمل البطيء السطحي يبعث الهدوء ..
فالخدر .. فالنوم .. وعرفت أنها نامت حين استيقظت على دقة جرس .
فتحت عينها المتعبتين ونظرت إلى الجهاز الذي كان الشعاع قد تحول عنه
فألفته يرن في شبه عصبية حتى تكاد السماعة تنزى فوق شكلها .

— « إنه هو .. إن التليفون يطلبني بالطريقة التي يطلبني بها هو بعصبية
واستعجال ا .. رن ا » .

— وتركته يرن . وطال الرنين . ويدها تنازعها لتمتد نحو السماعة . وأخيرا
امتدت بلا وعى . وقبل أن تصل إلى الجهاز كان الرنين قد توقف ا
— « حسن .. كنت أريد هذا في الواقع ا » .

كذابة ا وانقلبت على فراشها فأدارت إليه ظهرها : كأنها خاصمته ..
وتأملت ورق الحائط البنفسجي اللون ذا الفراشات والزهور والحمام . وكاد
النوم يخالط أجزائها من جديد لولا الرنين الذي انبعث من خلفها مرة أخرى :

— « إنه .. هو .. » .

لكنها لم تصبر هذه المرة فجلست مضطجعة ورفعت السماعه قبل أن ينقطع الرنين هذه المرة .

لم يبدأ أحدهما الآخر بالكلام ، ظلت السماعه مرفوعة عند طرفي الخط في صمت والسلك بينهما مهياً لأن ينقل خفقة النفس ، ولما لم يأت إليها حديثه غالبت نفسها وهتفت :

— آلو .. نعم .

« آلو ، نعم » الاثنان معا كان هو طبعها ، وحملت الكلمات غيظا واضطرابا وحبا وكرها وأملا في الرضا والصلح ، فإذا بالصوت من الطرف الثاني يأتي أكثر هدوءا ورقة وترددا واضطرابا كأنه صورة لقروية حية تتعثر في ثوبها الطويل ، إنه ليس هو ، صوت رجل غريب .

— من ؟ !

— هل تأذنين لي يا سيدتي أن أتكلم ؟

آ .. ! ليس الأمر رهيبا إلى هذا الحد ، ما دمت لن تقول شيئا مما يحتاج

إلى استئذان !

فاضطرب الصوت وتهد ونخيل إليها أن القروية الحية مرت على سطر من الرجال فحملقوا فيها فعثرت في ثوبها الطويل ، وعاد الصوت يقول :

— آ .. نعم .. إننى .. فقط .. لا أريد .. أريد ..

وأدى قلبها النشيط وظيفته الطبيعية في هذه الوهلة . تخيلته — وقلبا يخفق — شابا يعالج التجربة الأولى . أحبها من أول نظرة ويحاول أن يخطف كنفها ليطلع عليها قبلة ، وتخيلته شيخا مسنا رأى في شبابها صورة لحبيته التي ماتت منذ ثلاثين عاما ، وتخيلته أحد الرقعاء الذين يختبئون خلف « المسافة »

ليقضوا بذلك مأربا رخيصة . لكنها قالت تشجعه على الكلام حين أحسست في الصوت براءة كانت أذنها تشربها شربا :

— تكلم ، على كل حال ما أظننى سأقسو عليك حتى لو أخطأت .

— آه .. أشكرك : لقد وقع لى أكثر مما كنت أتوقع منك ، إننى أراك فى أماكن كثيرة إلا فى مكان واحد .

— طبعاً . (هـى . هـى . هـى) .

وضحكت كما يضحك خلى الببال ، وانهزت فرصة المهموم حين يجد ما ينسيه الهم ولو إلى حين . على أن الصوت كان فى نداوة النبات النامى حديثا مطمئنا جميلا كأنه « مسكن » . وتمرّج العصفور أمامها بالغصن وحامت حوله عصافير ، لعلها ذكور . فخطر ببالها تراحم الرجال حولها .

إنهم هم أنفسهم الذين نهبوها إلى أنوثتها الفوارة . أخبرها بعضهم بوقاحة ، وأخبرها بعضهم بوله ، وأخبرها الباقون بحياء . وهذا الأخير الذى يتحدث ، أحد رجال الصنف الأخير .

— رأيتك فى نادى السيدات ليلة أمس ، وأراك تتعشين أحيانا فى مطعم الحرية أمام سينما تريومف . وجلست على مقربة منك ذات ليلة وأنت فى إحدى المحلات حيث كنت تتناقشين فى موضوع نسائى ، وقد التقط المصور ليلتخذ صورة لك .. وأحيانا تتحدثين فى ركن المرأة . وأنا أتعقبك لكن بغير طريقة التلميذ الذى يتربص لفتاته أمام باب مدرستها .

وضحك « الصوت » ضحكة مثقلة ، يبدو التعب أو الخوف على صاحبها . لكن معظم الفتنة التى تدخل رعوس النساء لا تختار إلا طريق الأذن . فأحست المرأة لهذا الكلام طعما . لكنها أرادت من باب التضييق على

المتحدث أن تعرف ما يريد ، قالت :
— من الممكن أن أدعى أنني شممت رائحة روحك . وربما كانت غير
نفاذة ، لكنها هادئة ، ولذلك تستطيع أن تبدي رغبتك .
فأسرع كأنه تلميذ نجيب :

— أبدا . لا شيء بتاتا . كل ما أطمع فيه أن تأذني لي في أن أحدثك .. أسمع
صوتك وأبثك بعض همومي كامرأة ذات رأي وتشارك في المجتمع ، ثم أطوى
المسافة بيني وبينك سريعا بوضع السماعة على التليفون . هذا كل ما في
الأمر !

وخيل إليها أنه راعع عند قدميها يقبل أطراف ثوبها في عبادة ، إنها لا تنتقى
عطرها هادئا ، عطرها ذاته ذو جلبة وضوضاء يمشي أمامها وينبه الخياشيم
بعنف ؛ وهذا الإنسان الذي أحبته وكرهته وتعطيه وهي راغبة في حرمانه
وتحرمه وهي راغبة في إعطائه . هذا الإنسان بين الناس من نوع عطرها بين
العطور ، إننا نختار أشياءنا بمزاج واحد وننظر إلى ما حولنا بطريقة لا تخلو من
قاعدة .

على أنه لذلها أن تعطيه وعدا ولو طوال المدة التي يحجم على علاقتها بالرجل
الأول ظل الخلاف ..

وفي الصباح في نفس الميعاد دق التليفون .
— إنني لم أتم ليلة أمس ، كنت سعيدا .. سعيدا .. لا داعي لأن
تتكلمي ، اسمعي صلاتي أولا .. ثم ضعي السماعة إذا شئت ، كل ما أريده
أن تسمعي مني ، لا أنام ليلا ولا نهارا كأن الوقت السعيد يرفض أن ينامه
الناس . ولكن ..

— لا .. لا بد أن تتكلم . أنت شخصية لطيفة ومن حقى أن أراك . أنا امرأة خالية وفوق ذلك فأنى أملك قلبا .
— ليس أحب إلى من ذلك ، لكن أنا واثق أنك ستغيرين رأيك إذا تواجهننا . من الجائز أن تعرفى وجهى وتذكرى أنك رأيتنى من قبل . أنا لست مشوها ولا دميما . أنا إنسان عادى . لكننى عاجز عن أن أكلمك وجها لوجه .



وبالطريقة التى نؤلف بها صوراً لرجال التاريخ ممن لم يدركوا عصر التصوير رسمت لهذا الرجل صورة من نبرات صوته وخفقات أنفاسه .. ورائحة كلامه .

رسمته نحيف القامة واسع العينين شفته السفلى شاحبة ذات شقوق ، بوجه مستطيل وذقن كثيرة الكمثرى .. وليست تدرى لماذا . فقد كان على كرسى نحديه حمرة غير طبيعية كأنها أثر التهاب . وشعره أسود متماسك كأنه قطعة من القار . مستند على جدار عند الناصية ويداه فى جيبي بتظلمونه واقفا يتلفت كأنه ينتظر حضورها فى لهفة ، وفى عينيه أثر سهر أو فكر أو دموع ، وإذا عجز لسانه عن التعبير كما يقول تولت نظرتة الإعراب عما فى نفسه كأنما عيناه متصلتان مباشرة بباب روحه .

جبان . ولكن إشارة تشجيع واحدة تطلق من قيده المحب الجنون الذى يروى الظماً فى نفسها العطشى باستمرار .

هكذا رسمته . صورته فى الرجال تعادل رائحة عطر البنفسج يصافح بلطف وينبه برفق ، أما الرجل الأول فهو على النقيض .

ظلا هكذا طوال شهرين . تترقب حديثه بشوق كأنه يحدث عام يخاطبها خلال الراديو . وفي هذه المدة أخبرها بأنه لا يراها في الخارج . إنه لو لقيها لعرفت فوراً أنه هو . هو الذى يكلمها حتى ولو لم يرفع صوته ، لأن ملامحه ونظراته ستتم عليه .

ولما كانت رغباتنا لا تعرف جيداً فإن حلاوة الموقف بينهما كادت تبوخ . واعترفاً بما بأن هذا وضع لا يخلو من التمثيل . لا بد إذن أن يلتقيا . وفي هذه الليلة لم ينام هو . واستعادت هي أحلام العذارى .

وجلست فى المشرب الكبير الذى تواعدا على اللقاء فيه .. كان مزدحماً بالناس الداخلىن والخارجين من كل سن . وكان جسمها ينتفض انتفاضة المبلول كلما رأت رجلاً تنطبق عليه أوصافه التى رسمتها . وحين يغير اتجاهه فلا يقصد إليها تعود فتنتظر .

وأخيراً .. وبعد أن مضى على ميعاد اللقاء نصف ساعة — جلست تقرأ فى صحيفة ، وبينما هى مكبة عليها أحسست أن أنساناً جلس على الكرسي المجاور . كان قد جلس فى هدوء وصمت على مقربة منها حتى كادت قدمه تلمس قدمها . فلما أحسست به فتحت فيه عينيها الواسعتين اللتين وسعهما التجميل أكثر وأكثر .. وهتفت بصوت يكاد يكون همساً :

— أنت ١٩ .

فهز رأسه مؤمناً دون أن يقوى على أن يقول شيئاً .

وفي هذه الفرصة انعكس الموقف ..

لم يكن هو الذى يتأملها فقد تأملها وانقضى الأمر . وجاء دورها هى لكى تتأمله . وكان الموقف بينهما مثل عملية قياس البدلة الجاهزة فى أحد المتاجر من النادر أن تجيء مضبوطة من كل نواحيها .

لقد فصلت « الشخصية » وعاشرتها منذ شهرين وكلمتها في النهار وناجتها في الليل ، وزاحمت الرجل الأول في خلايا قلبها .. وأطلت عليها مع الصباح من الشباك القبلي داخلة مع شعاع الشمس .

لم تكن الذقن على هيئة كمثرى ولا الشعر مثل قطعة من القار ، والمصيبة أن العينين لم تكونا فصيحيتين . كان فمه صامتا ونظراته صامته ، وحيات عرق قدر رعوس الدبابيس تلمع على جبينه تحت مصاييح القهوة .

وفي اللحظة التي كان الخادم يقدم فيها الشراب كان هو يكتب على المنضدة بأصبعه السبابة حروفا لا تقرأ . وكانت هي تسأل نفسها :

— لماذا لم آنس إليه ؟

إنه لم يدع لها شيئا تكشفه بنفسها . إن الكبار مثل الأطفال يستلذون « الكشف » حتى ولو أدى إلى التكسير . والمرأة أقوى فضولا من الرجل . لقد أعطهاها أئمن ما عنده قبل أن يلقاها ، فلما ظلل الحياء أو الفتور على لقاتهما أحست كأنها تهوى من فوق برج .

ومنا ذكرت رجلها الأول الذي يعطيها كل يوم شيئا جديدا حتى لم يترك فضولها متعطلا بلا عمل .

كان صاحبنا يحكى لها — مرة أخرى — عن الظروف التي جعلته يخرج معها هذه التمثيلية ، وكلما أمعن في الحديث أمعنت صورته في البعد عما تصورت .

وشيئا فشيئا ظلل الفتور ، وذكرت أن هذا ثالث رجل أو رابع رجل يريد أن يخرج الأول من الحصن .. بلا جدوى .. وباتت هزيمتهم جميعا نصرا له أحرزه في صمت ودون عناء .

نظرت في الساعة فلم يتبته . كان يتكلم فيما فات كأنه يقرأ تقريرا وعيناه

نحو رخام المنضدة ويده على كأس فارغة . ثم نظرت إلى الساعة وادعت أنها على موعد آخر .

وضغط على يدها وهي تنصرف ..

في الصباح رن التليفون . كان الشعاع المنحرف واقفا على الجهاز ، وكانت وهي جالسة في فراشها والخادمة تقدم لها كوبا من ملح الفواكه . فأشارت إليها أن ترد . وبعد إشارة معينة قالت الخادمة :

— سيدتي نائمة .. وأمرتني ألا أوقظها .

وبعد ربع ساعة رن الجرس رنيننا متصلا ، وكانت لا تزال في فراشها وطعام الفطور بين يديها على صينية معدنية .. ورفعت السماعه وقلبها يدق فجاءها صوت نسائي مستعجل نتبه لسحره لأنه دائما يستعجلنا . صوت أنسة « الترنك » يقول لها :

— المنصورة .

— آلو .. نعم « الاثنان معا » آلو .. نعم ، آلو .. نعم ..

هذا أنت يا حبيبي ؟ ! ولماذا لم تكن في القاهرة ؟ كانت جراحة مستعجلة ؟ .. آه .. تعذبنى بكل صنف ! تخشى أن تموت ؟ ..

على كل حال مستعدة لأن أفديك ..

نعم .. سأحضر إليك .. ونحن هكذا أبدا !

خطبہ و غفران

كنا في الدار وحدنا . الدار على حدود القرية . أمامها التربة وخلفها الحقول ونحط من الأشجار المختلفة النوع يمنح الطريق الظل أثناء النهار والوحشة أثناء الليل .

والليل شديد السكون ، يحرك الغرائز ويشير الرغبات ويهيج الخوف في نفوس المنفردين . وسهرت أمي تقص على قصة زواجها من أبي وكانت تكلمني في ذلك العهد كما تكلم الطفلة هربها فتحقق لنفسها الرغبة الطبيعية في أن تتكلم ، تضع ثديها في فم أحد الصغار من إخوتي وتنكفيء نحو الأمام في وحشة ثم تحكي ، وفي حائط الحجرة مصباح معلق ، وعلى الحصير ثلاثة أطفال وفي حجرها واحد ، وعلى الفرن « حلة » نخلت من الطبخ أثناء العشاء .. والكلب ينبع فوق السطوح . وخيالي يحلم بأن في الحقول ذئبا . وكانت تبدو جميلة حتى ولو كانت حزينة . وفي دقة ملاحظتها بساطة قروية غنية عن الغسل والتلميع . وكانت تحكي بطريقة تجذبك إلى صفها وتشعرك بأنها ضائعة الحق في الحياة .

وكثيرا ما كنت أصرع النوم وصوتها ينصب في أذني فأرقد حيث أنا فترحزني لأخذ مكاني في الصف على الوسادة المشتركة وتحت الغطاء الواحد مع بقية الأولاد .

كانت ليالينا خالية ، خصوصا في الشتاء ، ففي هذا الفصل كان أبي يتأخر عن الحضور إلينا لأنه كان شاقا عليه . كان موظفا صغيرا أو عاملا كبيرا في إحدى محطات السكة الحديد على طريق الجبل ، وكان يؤثر أن يعيش هناك

وحده فهذا أيسر عليه وأرخص له . وفي نهاية كل أسبوع أو أكثر — على حسب الظروف كان يأتي إلينا عملاً بأشياء : عواطف وفواكه وعيدان قصب .. وخضروات وغيارات تحتاج إلى غسيل . وشعر طويل يحتاج إلى حلاقة ، ونقود إذا كنا في أول الشهر .
ويظهر ألى في دارنا فجأة ، ثم يختفي عنا فجأة . كأنه ضيف ، أو كأنه طيف .

ولطول غيابه عنا كانت أمى هى الشخص الأول فى حياتنا وكنت أنا الشخص الأول فى حياتها بالنسبة إلى إخوتى .. لذلك .. كنت أشعر بإحساس الغلمان — أنها تأنس إلى .. وحين يسكت الليل وتمجع القرية فى بكور وبلادة كانت تسامرنى وتحكى لى من شئوننا ما أفهم وما لا أفهم .
وأهم قصة سمعتها منها هى قصة زواجها بأبى ، كانت تكررها بقصد أو بغير قصد . تنسى فتعيدها أو تتسلى فسترجمها . وكنت أستمع لها فى بعض الليالى والنوم يضغط على رأسى فيكاد عنقى ينثنى من ضغطه .

كان أبوها رجلاً مسنناً أنجبها على شوق بعد أن حرم الذرية طيلة أيام حياته . وقد عجبت أمها من ثمرة آخر الموسم هذه التى لعبت فى بطنها على غير انتظار . ثم جاءت بها جميلة مليحة كأنها لا تنتسب إلى أسرتها ، وصارت فى بيت أبيها كشمعة صغيرة يخاف عليها صاحبها أن تلذوب .

لكنها لم تكد تبلغ حدود العاشرة حتى فقدت أمها ، وفى حدود الثانية عشرة مات أبوها فى معركة قامت بين العمال الذين يخفون المصارف . وكان أبوها أحد الملاحطين هناك فأخذ ضربة « كوريك » على رأسه ، ففضى نجبه فى الحال .

وأصبحت الطفلة الكبيرة منذ ذلك اليوم فى رعاية عمها .

(أشياء للذكرى)

قصت على هذه الحكاية عدة مرات وفي ليال من كل الفصول . وكانت ذكرى أبيها أشد وقعا على قلبها من ذكرى أمها . كانت تصف لي طريقة دخوله عليها واستقبالها إياه والفواكه التي كان يحملها إليها في قرية لا تعرف الفواكه . والناديل الحمراء والناديل الخضراء ذات « الترتر » وغوايش الفضة وضافائر الحرير .

أما فترة إقامتها في بيت جدي لأبي أو في بيت عمها هي ، فقد كان الغموض مخيما عليها . لم تكن تحكى لي عنها شيئا ذا بال وكنت أفهم من تقلصات وجهها وتضييق عينيها حين تتعرض لهذه المرحلة أنها أيام غير سعيدة وكفى .

ولم أكن أرى على وجهها السرور في الليالي التي كان أبي يزورنا فيها .. كان في بعض الأيام يأتي إلينا عصرافتراه ونحن نلعب على الطريق فنجرى ونتعلق بملابسه ونحمل عنه بعض « الحاجات » التي يحتضنها ، وكان في بعض الليالي يأتي إلينا متأخرا بعد أن ننام جميعا ، فكنت أستيقظ — وأنا أكبرهم — على هزات عنيفة من يده ويستيقظ من هم أصغر مني بعد أن يضع على فم أحدهم شيئا حلوا : برتقالة ، أو قطعة من الحلوى ، أو شيئا مما يفرح الأطفال .. وكانت أمي تزرم شفيتها وتضييق عينيها وتدمدم ليدعنا نائمين ، ولكنه ما كان يسمع .

ويتكلم الأبوان في شئون عامة ، وقد يتكلمان في شئون خاصة ، حتى إذا ما غلبنا النوم رقدنا في أماكننا ، أما هما فكانا يرقدان إلى جوارنا أو يخرجان — إذا شاءا — إلى مكان آخر .

ويعود المرح إليها عقب سفره ، أو يعود إليها طبعها الهاديء على الأقل ، وتمشى الحياة في الدار على صورة غريبة ، صورة ناس يأخذون ولا يعطون

وينعم عليهم فلا يشكرون .

واجتاحت قريتنا في هذه الأيام الشتوية موجة من الحرائق ، وكان الجو دائما في صف الجرمين ، فالرياح الشمالية الغربية تهب جافة لا ماء فيها ، وتنشط أثناء الليل نشاطا خفيفا تزرقي به سقيفة الخطب في كل دار ، وما تكاد العيون تغمض حتى يستيقظ الناس على الصراخ وعلى جرى الفلاحين بنعالهم الثقيلة أو أقدامهم الخافية إلى حيث تشتعل النار ، يطفئونها وهم يتصايحون ، ويفرغ عليها النسوة الماء من البلايص وهن يولولن .

كنت أستيقظ في كثير من الأوقات فأجد الليل ضاربا أطنابه والسكون خيما كثيفا ، يوقظني برغوث ضل الطريق فدخل أذني ، أو حلم مزعج يوحى إلى أن حريقا شب قريبا من دارنا . وأفتح عيني فأرى سطرا من الأطفال يرقد تحت الغطاء والأم قريبة منهم تتمدد ناحية العتبة ، والمصباح يلفظ أنفاسه من جهد السهر ، وألقى نظرة على النائمين ، ثم أعود فأستأنف النوم .

وأرقت في إحدى الليالي من شيء مبهم لعله كان جرجرة الريح في الحارة حلمت حلما غير واضح المعالم صارخا مختصرا تبينت منه أنني أسمع وقع حوافر حصان خلف الحائط الذي يفصل بيتنا وبين الطريق . وتحركت في مرقدي ، ورفعت بصري المثقل بالنعاس إلى المصباح المجهد ، ثم تنبته تماما على صوت حاد .

كانت الطفلة الصغيرة بنت الستين تبكي وهي راقدة ، أدركت أن أمي ستستيقظ لتقضى لها حاجتها ولكن بلا جدوى .. واستمر بكاءها وارتفع صوت يشوبه الاحتجاج صارخا تخالطه بحة الباكين . وأخذت الطفلة تنادى : « أما .. أما .. أما » لكن بلا جدوى ، ودفعني الحنان الأخوى

فتخطيت ثلاثة أجسام تنام تحت الغطاء حتى وصلت إليها وأخذتها وأجلستها في حجرى ، فاستأنست بى قليلا والشهقات تقطع صدمتها ، ثم استأنفت نشيجها مرة أخرى وأخذت تنادى على أمها .

كنت واثقا أن أمى تقضى حاجة لا يقوم بها سواها ، عرضت لها فى الليل وهو طويل تعرض فيه مثل هذه الحاجات . لكن غيابها طال ، ولم يعد الترييت على كتف الطفلة مقنعا لها ، فأخذت تصرخ ولكن صراخها أصبح عاجزا بعد قليل عن تبيد سكرة النوم من رأسى ، فصرت أترنخ وأنا جالس وهى فى حجرى حتى اصطدمت ذقنى بأعلى رأسها عدة مرات .

ثم نادى فقهمت أنها تطلب ماء ، فقامت أسقيها ، كان ذلك بعد مرور ثلاث ساعات فى نظرى أنا وعلى طريقة حسانى .. وفى اللحظة التى كنت أضع فيها الكوز على شفتى الطفلة سمعت الباب الخارجى للدار يصر فى حذر من المستحيل أن يكتم خصوصا فى الليل عندما تتضخم الأصوات بفعل السكون فتبدو وكأنها اتبعثت من بوق ، وهر الكلب فى الساحة بطريقته حين يستقبل إنسانا يعرفه . وقرقرت أوزة وردت عليها أوزة أخرى ، ثم اندفع باب الحجرى الشتوية التى ننام فيها فدخل الهواء البارد قبل دخول أمى ..

شهقت فى جزع مغلوب عندما وقع بصرها على مباشرة : « هل أنت صباح ؟ » وصرخت الطفلة كما يصرخ الغريق . وتلقفتها بين ذراعيها قبل أن تخلع جلبابها الأسود الذى لا يلبس بالليل ولا ترتديه إلا إذا كانت خارجة من الدار .

أما أنا فلم أفهم شيئا ولم أقل شيئا ، ولم تحدثنى هى بشيء كذلك ، بل أقممت الطفلة — المتأخرة فى الفطام — ثديها ، ثم انكفأت نحو الأمام فى ذلة لا أدرى مآتها ، وقطبت جبينها وضيق عينها ، والمصباح المجهد يرمى ببقية

النور على (المنظر) وعيناي تلاحظانه حتى غرقت في النوم .
وتكرر الموقف في ليلة تالية وإن اختلف السبب الذى أيقظنى من النوم .
حلمت كأنى جالس على شط ترعة والدنيا شتاء والماء مثلوج ، وكأنى أضغ
قدمى فى الماء الشديد البرودة ثم أسحبهما وأعود فأرجعهما إليه وأنا أوحوح ،
حتى استيقظت .

رأيت باب الحجرة الشتوية مفتوحا علينا، ليس مفتوحا على اتساعه لكنه
موارب وتيار هواء بارد يتدفق كأنه الماء من بربخ ، وقدمائى خارجتان من
الغطاء أو هو منحسر عنهما والهواء يلفحهما . وإخوتى راقدون فى أوضاع غير
منتظمة فى سطر غير معدول والصغيرة لا غطاء عليها ، قذفته بربجلها ثم
هرشت فرفعت جلبابها عن نصفها التحتانى فبدأ عاريا ، والمصباح متراقص
الذبالة .. والأم ليست فى الحجرة .

ناديت عليها فلم يأتنى رد وهممت أن أقوم فأحكم إغلاق الباب لكننى
خفت ثم تشجعت ففعلت . وما هى إلا برهة حتى استيقظت الصغيرة
وعادت المأساة ، أخذت تنادى ثم انخرطت فى البكاء فوضعتها على حجرى
وجعلت أمسح لها فمها وأنفها ، لكننى لم أطلق فبكيت أنا الآخر .

ولم يطل الموقف حتى سمعت صرير الباب الخارجى وهر الكلب لاستقباله
انسانا يعرفه . ثم انفرج باب الحجرة الشتوية علينا كما حدث فى المرة السابقة
ودخلت أمى فى جلبابها الأسود وكان أول ما فعلته أن دعت على الطفلة
« بنكسر الرقبة » وكان دعاؤها مشحونا بنقمة عرفت فيما بعد أنها نقمة الذين
ينغص عليهم غيرهم شيئا يجلدونه لذيذا .

واستمهلتنى حتى تفسل قدميها لأن الأرض كانت موحلة قليلا . ثم ألقى
المصباح ضوءه عليها والطفلة تمتص لنها فى صمت .

منذ خمسة عشر يوماً وأبي لم يجيء لنا ..
وأحسست نحوه بشوق شديد وكنت كل يوم أتطلع نحو الجهة التي يصل
منها إذا جاء من سفره لكن بلا جدوى ، ثم أنسى فأنخرط في اللعب مع أندادى
الصبيان .

وعند مدخل هذه الليلة سألت أمى عنه ، فرددت على بعصية بأنها
لا تدري ، ثم ختمت ردها بالدعاء على : « جاتك نيلة » .
سألت نفسى : لماذا يكون الموقف هكذا ؟ وهل سؤالى هذا كان
يستدعى هذا الجواب ؟ وطبعاً لم أفهم .
ثم آوينا إلى فراشنا وأخذ كل منا مكانه من الصف .. وألقى علينا الغطاء ،
لكننى ما لبثت أن استيقظ على عراك :

— سأوقظهم .

— لا توقظهم .

— إنهم أولادى يا امرأة .

— أنا أعرف ذلك أيها الغيبى .

— أتشتميننى ؟

— ماذا أصابك هناك ؟ لعلك تحب فاجرة من الفواجر . أو غجيرة من
الغجر : لسنا فى حاجة إليك ما دمت هكذا .. ابق هناك ، هل جننت ؟
أتجرنى من شعرى ؟ يا .. يا .. يا ..

وأخذ صوتها يتعد وجسمها يتدافعان إلى الخارج ..
وانفتح باب القاعة فدخل البرد ثم أقفل وغاب الصوت .. ونعيم السكون
على مرقدنا وذرفت عيناى دموعاً لست أعلم فى صف من كانت ، هل كانت
فى صف أبى أم كانت فى صف أمى أم كانت حسرة على الاثنين . ؟

وحاولت ألا أنام قبل أن يعود! لكننى لم أفجح .
وفى الصباح أكلنا برتقالا ومصصنا قسبا ورأينا أبى وهو مسافر . كان
طويل الشعر مهوش الذقن . انتظر الحلاق فلم يأت إليه . وخاف أن يفوته
القطار فترك الهدايا والنقود وأخذ معه شعره الطويل وملابسه المغسولة قبل أن
تجف تماما ثم رجع إلى عمله .

ورسبت فى نفسى بالنسبة لأمى فروض غير مفهومة لكنها غير مريحة .
حتى صرت أستيقظ من النوم بحكم قلقى عليها وعدم رضائى عن خروجها .
وتكرر الموقف . ودخل البرغوث فى أذنى فهبيت من النوم . وألقيت
نظرة عاجلة على مكانها من الصف كما تفقد المرأة حليها فى الزحام ، فوجدته
خاليا والمصباح ينظر إلينا من فوق بعينه الحمراء ، وحلة نحاسية سوداء الظاهر
قابعة على قبة فيها ماء ساخن وإلى جوارها كوز . ولم تستيقظ الصغيرة ولم
يتحرك أحد من إخوتى النائمين .. وكل شىء نائم كأنه ميت .. إلا أنا .

وسمعت صرير الباب الخارجى ثم دخلت على فى جلبابها الأسود .
لم أتكلم فحسبتنى نائما فانتصبت فى وسط الغرفة تخلع الجلبات الأعلى
فانبرى إليها صوتى حازما حادا يسألها فجأة :

— أين كنت يا أمى ؟

فهتفت من المفاجأة بصوت مهموس :

— بسم الله الرحمن الرحيم .

ثم كورت الجلباب وقذقتنى به فى وجهى فانطلقا المصباح من لفحة الهواء ،
وسحبت أنا الغطاء على وجهى وأبعدت الجلباب يدي ونمت ودمعة على
خدى وفى حلقى شهقة حاولت ألا تسمعها ، أما هى فقد أخذت مكانها من
الصف وهى تلمدم والحجرة ظلام وتشتم أناسا كانوا السبب . من هم ؟

لست أعرفهم .

استيقظت الليلة من النوم على يد تهزني وكانت ثقيلة ، كانت يد أوى . رأيت مضطرب الأنفاس كأنه حصان حل فورا من العربة وكان وحده .. لم أر بجواره أمى .

وحين استويت جالسا على الفراش سألتنى :

— أين أمك ؟ أين الملعونة ؟ .

فأجبت بصوت ناعس :

— لست أدرى ، أنا نائم كما ترى .

فاستطرد يقول بعد أن قام وجلس عند العتبة المنخفضة ومد فيها ساقية :

— عال عال ، والله العظيم .. كنت لا أصدق ما أشيع عنها ، وهأنذا

جئت .. الباب الخارجى مقفل بلا مفتاح .. مردود فقط . والعيال نائمون

وحدهم .. أين هى ؟ لسنا نعلم .. غير أن التى تخرج فى مثل هذا الوقت من

الليل والبرد قارص وفى الأرض بقايا أوحال ، امرأة ليست شريفة الغرض .

وسكت كأنه يفكر ثم تنهد ، ثم استطرد :

— عال والله العظيم ، ناس تحفى أقدامهم فى سبيل القرش ويبتون فى

الجبال ، وآخرون ينامون فى الدفء ويصنعون ما يصنعون ! .

وضحك ضحكة عصبية . كان خيرا له وأدعى إلى الراحة أن تدمع

عيناه .. لكنه ضحك ثم ضحك .

وقام إلى قبة الفرن فأحضر ماء ساخنا فى صينية نحاسية ووضع رجله فيها

وحمل رأسه على كتفيه فى جلسة مغلوبة ، وكان فى العتبة حزمة من عيدان

القصب غير خفيفة حملها عند نزوله من القطار غدة كيلو مترات ، وحذاؤه

ذو الرقة الطويلة مجنوب إلى ناحية ، عليه كثر من أوحال الطريق . وكان

ظهره إلى وهو جالس ، فرأيت شعرا مهوشا تحت قلنسوة من الصوف ،
وكتفين عريضتين عليهما سترة من الكاكي .
وكان يبدد الصمت بين لحظة ولحظة بكلمته المألوفة « عيال والله
العظيم » . ويبدو أن حظها العاثر دفعها إلى الخروج قبيل الوهلة التي وصل فيها
أبي ، لذلك فإنه انتظر المدة كلها واستطاع أن يدرك في أى الأغراض التي
تقضى فيها مثل هذه المدد :

وصر الباب وهر الكلب وقطعت الوز فخفق قلبى .
وانفرج باب القاعة عن وجه أمى ودخل قبلها الهواء البارد ، فرأت أبى
جالسا ورجلاه في الماء الساخن ورأسه محمولا على كفيه ، فوقفت ذاهلة
صامتة وأسندت بظهرها الباب الذى أغلقته .

وتوقعت أنا شيئا خطيرا سيحدث ، لكن الرجل ظل في مكانه كأنه تجمد
فيه . وبقيت هى في جلبابها الأسود مسندة الباب بظهرها ويداها إلى الورا .
وأخيرا قامت الطفلة تصرخ بحكم العادة وتنادى على أمها ، وكأنما كان
هذا صماما قد انفتح فتحرك أبى من مكانه وهوى على زوجته ضربا بكل ما
كانت يده تصل إليه .. ثم سحبها إلى غرفة أخرى .

كنت أسمع وأنا في مكاني — على الرغم من بكاء الطفلة — سبابا وشتائم
بعضها حريمى وبعضها رجالي ، وتنفيضا كتفويض المراتب ، وبكاء وعويلا
وأستعطافا في بعض الأحيان ، ونواح الكلب خائفا مذعورا ، وفترات صمت
تقطع هذا كله ، وفترات انفعال تعقب الصمت . وكفت الطفلة عن البكاء
وتكورت ثم نامت ، واستغرقت أنا في النوم أثناء فترة من تلك التي نيم فيها
السكون على الدار .

ولم يسافر أبى وقت الصباح كما كان يسافر .

وأحسست كأن جدارا في دارنا يتداعى ، كأن شيئا ينتقل من مكانه ..
رأيت أمى تجمع ملابسها وهى تبيكى وتضع في صندوقها « الحاجات
الصغيرة » وكان أبى يلاحقها وهى تفعل ، وينظر إليها فى صمت طويل ثم
يقذفها بكلمة كلما رأى دمعا يجف ، فتعود إلى البكاء .

وبعد أن تحركت قافلتها المنحوسة إلى بيت خالها فى قرية أخرى قبل أن
تشرق بقليل شمس أحد الأيام ، رأيت أبى يجلس القرفصاء على باب إحدى
الحجرات ويبيكى حتى سأل لعابه على ذقنه غير المخلوقة ، كما كانت تفعل أختى
الصغيرة بالليل .

أخذت معها ثلاثة من الأولاد وهى خارجة : بنت على كتفها وولد فى
يدها وآخر يمشى وراءها . أما أنا فقد بقيت مع أبى .. وبكيت مثله ونحن ننظر
إلى البيت الخالى ، ونشم أنفاس السكون والخراب منذ صبيحة ذلك اليوم .
وبعد أن أخليت الدار من كل حى حتى الدجاج والوز ، أدار أبى فى بابها
الخارجى مفتاحا غليظا من الحديد فأقفله ، ثم سار وسرت من خلفه . وكان
وجهه فى هذا اليوم يبدو كبير السن كأن الرجل قطع عشر سنوات من عمره
فى الأيام السالفة .

وأفهمنى ونحن فى القطار أنتى سأبيت معه ليلة واحدة فى مقر عمله فى
المحلة الصحراوية ، وبعد هذه الليلة سيذهب لى إلى القاهرة .

كان نادر الكلام فى هذه الفترة ، ويؤلمنى أن أقول بأنه أمسى قبيح المنظر ،
أشبه برجل فى ميدان القتال لا يخلق ولا يغتسل ولا يغير ثيابه ، كل الإفرازات
التي يقذف بها جسمه ترسب عليه ، وهو — لحزنه — لا يفكر إلا فى الذى
حدث .

وبتنا لا نتكلم، وأحسست أننا نمشى إلى مجهول ، وأن نصيبى الشخصى

من هذا المجهول أكبر من نصيب غيرى بكثير .
ثم حلق واغتسل وقت الصباح ولبس جلبابا من الصوف ببنى اللون
وأخذنى إلى القاهرة .

كنت أعرف أننى ذاهب إلى عمى لأقيم عندها إقامة دائمة ، ولكننى
كنت وجلا من القاهرة ، وكنت أجفل من عمى ، ومن الإقامة فى بيتها .
ونخيل إلى فى ذلك الوقت أن الإقامة تحت جناح الأمهات — حتى المخططات
منهن — أشد دفئا ونعومة للأبناء من الإقامة تحت جناح امرأة غير أمه .. هكذا
نخيل إلى .

ولم أكن رأيت عمى كثيرا ، وفى الحلق أنها استقبلتنى أنا وأبى بخنان ،
وضربت بكفها المستديرة الصغيرة السمينة فى صدرها المكتنز حين رأت وجه
أبى ، ثم تركانى فى حجرة ودفنلا حجرة أخرى .

فهمت أن أبى يحكى لها ما جرى وكان صوتها يأتى إلى مشحونا بالعاطفة ،
أو مهزوزا من العاصفة ، أو مبحوحا من البكاء . وكانا يهيسان ويلغطان
ويصمتان ثم يستأنفان الحديث .

وبات أبى ليلته معى ، وأحسست ونحن على الفراش أن فى صدره هما
وكأنه يريد أن يقول شيئا ، ولكنه تنهد ونادانى فرددت عليه داعم العينين .
قال :

— اسمع يا عوض ، أمك أصبحت غريبة عنك منذ اليوم ، لقد طلقته لأنها
عملت أشياء لا يرضى عنها زوج .. هل أنت فاهم ؟ المهم هو أن تجتهد فى
دروسك ، عمك لا ولد لها وستكون ابنا لها ، وزوجها رجل طيب ولو أنه
سريع الغضب ..و..

وأحسست أن صدره يضيق وأن الكلام لم يعد سهلا عليه فتوقف

وبكى . وانخرطت أنا في بكاء طفلي غزير طويل الشهقات ، فكان منظرا مؤثرا .

ولم يكلم أحدنا صاحبه واستغرقت في النوم .

واستيقظت عند الفجر على فمه يقبلني . وكان يودعني بدعاء وهمس ولهفة .. رجل ألقى نفسه على حين بنته ، وحيدا بعد أن كان في زحمة الأسرة . وفرارا من الموقف تصنعت النوم حتى إذا ما سمعته يغلق الباب بكيت ووجهي مغطى باللحاف .

ورأيت زوج عمتي على مائدة الفطور وقت الصباح .

كان يعيش في بجوحة ، تاجر عطور ، يبيع العنبر والعنبرول في دكان صغير جدا في حي السيدة زينب ، لكن علامات الثراء ظهرت عليه فجأة ولسبب غامض ، وتقول الناس الأقاويل ..

ورأيت عينيه المجهدتين الحمرائين وهو ينظر إلى للمرة الأولى في بيته ، ثم قال وهو يتنسم وبصوت كأنه هدير : « أهلا بك يا عوض » .

وجفف وجهه بالفوطة ، وجهه الأسمر الترائي الداكن الذي لا يدعو إلى الطمأنينة ، والذي يذكر فورا بوجوه المهريين .

وتناولت فطوري على مائدة شهية تدور حولها خادمة ، وعليها بيض وزبد وجبن ومرق وزيتون ولبن .. كل هذا مع المدمس ، فبهرتني العز .. لكنني كنت أمد إلى الطعام يدا جعلها الخجل تتعثر بين الصحون .

ثم دخلت إحدى المدارس الابتدائية في حي السيدة ، وألفت الحياة في بيت عمتي ، ونسيت دارنا في القرية ، وكان أبي يأتي لزيارتنا بين حين وحين ويحمل هدايا ريفية من البلدة التي يسكنها ، وقد سره أنني تلميذ ناجح ، ورأى في ذلك عوضا له عن حياة اعتبرها تالفة .

ولم أكن أرى زوج عمتي كثيرا ، وقليل ما كان يتعشى معنا .. وكان لا يعود إلى بيته الا في وقت متأخر من الليل وينهض باكرا في الصباح وهو يشكو الصداع وقلّة النوم . ويسعل من أعماق صدره وهو واقف على حوض الغسيل . وينظر إلى إذا كنت على مقربة منه نظرة كنت أخاف منها ، مع ثقتي بأنه يجنبني لأنني آنست وحشة بيته ، لكن عينيه كانتا دائما حراوين فيهما عصبية ونفاذ صبر .. لذلك كنت لا آلفه .

وكان يحب عمتي ويأتمر بأمرها ، ولا يطلق غضبها ، كانت سحرا بالنسبة إليه .. وكنت ألاحظ — حتى في الأوقات التي كان يبدو فيها في قمسة غضبه — أن ثورته تخمد تماما إذا بدأت ثورة عمتي في الهبوب .. ربح أقوى من ربح .

وقبلني الرجل ذات مساء وأعلن أنني « وجه سعد » بالنسبة إلى السوق . لقد تحسنت أحواله جدا وقد وقع اليوم عقد شراء وأصبح هذا البيت « ودق برجله على أرض الغرفة » ملكا له ، ومن أول الشهر سيحصل الإيجار من السكان .

وأحسست بفرح غامض كأنني اطمأنتت على مصيرتي ، وتذكرت في الحال فوزية بنت عمر أفندي المدرس وأنتى سأدخل السلامات عندهم فأخذ منهم الأجرة وأعطيتهم الوصل وأنتى سأكبر في نظر فوزية ويزداد حبها لي .. خيالات صيانية .

ولم يكن أبى يقول لي شيئا عن إخوتي الذين هاجروا إلى قرية بعيدة ولكنني تعرضت في يومين متتالين لشيعين هزا قلبي وقلقلاني ، بعنف . أولهما أنتى رأيت أبى وهو يسلم على زوج عمتي فلم يعجبني سلامه ، كان أبى في جلبابه الصوفي البني لا يتغير منحنيًا بقامته القصيرة أمام صهره الطويل . فكان

« ذل » شبه راعع أمام « عز » منتصب القامة عليه معطف أسود غالى الثمن
وفى يده عصا وسبحة ويفوح من أعطافه مختلف العطور .
وتذكرت أن أخت هذا الرجل الراكع تصرخ أحيانا فى وجه هذا الواقف
فى اعتزاز فىنكمش فى ذل .

وفسرت الأمر بأنه « الحاجة المرة » .

أما الشىء الثانى الذى تأثرت له فهو أن عمى أخبرتنى بعد سفر والذى أن
أختى الطفلة الصغيرة قد ماتت وأنه لم يبق مع أمى إلا الولدان . فسرحت
كأنى أسمع بكاءها فى الظلام ، هناك فى القرية بعد أن تخطت الأم أجسام
أولادها النائمين وخرجت .

لكننى حين رأيت على شفة عمى بقايا الشمزاز لم أفطن إلى أوله ، فهمت
ما كانت تقصد أن تقول : كانت تريد أن تقول أن هذه البنية لو كبرت لورثت
أمها وهى تحمد الله على أن المنية عمجلت بها ، فبكىت لمن ؟ لست أدرى ..
كنت فى بعض الأحيان أحس بشبه تدمر يغمر عمى لأنها تؤوينى بالطبع
فى بيت رجل غريب عنا ، وبقوة سلطانها وخلو البيت من الأولاد كنت أعلم
أننى أقيم عندهم ، لكن هذا شذوذ من القاعدة فلا عجب إذا كانت عمى
تتدمر أحيانا .

والنجاح يحفز على مواصلة السير ، وانتقالى مرحلة بعد مرحلة بتفوق
وتوفيق جعل أبى يأمل فى أن يرى النور وعمى تصبر على تربية هذا « الدمى »
يعنى أنا ، كما كان لى بالتالى أمل عذب فى أن أكسب وأن أحب وأن أتزوج ..
وكانت « فوزية » تلون حياتى — على الرغم من بخلها — بألوان زاهية ،
وتسدل على مخدع المستقبل ستائر من المخمل .

وأحسست بحنين نحو أخوى . فجاء بهما أبى إلى القاهرة مرة فرأى بعضنا

بعضاً ثم عاداً إلى المنفى .

كان بينى وبينهم اختلاف شديد ، كنت أحس الفرق ضخماً بين طريقة كلامى وأكلى وشرى ومشيتى وطرائقهم هم . واختلاف المذاهب يخلق نوعاً من الغربة تمنيت يوماً أن لم يكن خالط قلبى .

وسمعت سيرة أمى طوال هذه الزيارة .. لكن البعد يخلق السلوان خصوصاً فى هذه السن التى تكون فيها فى ليونة طينة الصلصال .

وتغير شكلى وقوامى بفعل السنين .. طال عودى وامتد فى نحافة وعدم تناسق حتى كنت أنظر إلى أبى وعمتى وفوزية من العلياء وألقى شيئاً من السخرية ، وبتقدم السنين كذلك أصبحت طالبا فى السنة الثالثة بمدرسة الصناعات ، وأصبحت أحلام المستقبل على وشك أن تلبس جلابيب الحقائق .. وكنت مصمماً بينى وبين نفسى على أن أعيد النظر بقوة فى المسألة التى لحقت ببيت أبى ..

لكن ..

من المحال أن يخلو الطريق من العثرات ..

وقد كانت العثرة فى هذه المرة مكتوبة على خطواتى .

دخلنا الامتحان التحريرى للشهادة التى تسمى « دبلوم الصناعات » وأنا

طالب مجتهد أتعلق بالتعليم كما يتعلق الغريق بطوق من الفلين .

وسارت الأمور على ما يرام حتى كان يوم من الأيام .. جعلنا نجيب عن

الأسئلة والصمت نحيم على المكان و « مراقب اللجنة » واقف ينظر إلى الطلبة

بعينين تشبهان عيني النسرت ثم يتغاضى وينظر من الشباك .

وكنت فى الركن الأقصى من المكان وإلى يسارى طالب مهمل كان يغتم

فرصة انشغال « المراقب » ويهمس لى طالبا « كلمة » .

— كلمة لله يا عوض .. أنقذني .. كلمة لله .. يخرب بيتك .

ويصر على أسنانه ويعض شفته وهو يكاد ييكي .

والقمته كلمة في غفلة من المراقب فانفتحت شهيته للغش .. ثم زجرته فلم ينزجر . كنت أشبه بالمرأة التي تستسلم لما يفعله رجل مجهول لأنها مكسوفة متورطة تؤثر الصمت .. وانتهر الطالب هذه الفرصة فاستبدى .. وعلى حين غفلة وقعنا في قبضة المراقب متلبسين بالغش فقد كنت أكتب له شيئا على التشافة .

جريت يومئذ موقف الذين يساقون إلى الموت فتبدو لهم أشباح الناس والكائنات وكأنها منضصلة عنهم لا تربطهم بها علاقة . والحذر الذي يلحق الإحساس فيشل اللذة والألم على السواء .

وخرجت مطرودا محروما ، دوري في العام المتبيل إذا عشنا ، وعلى عمى وزوج عمى وبيت عمى أن يؤويني عاما آخر .. يا سلام ! .

ورأيت النيل يناغيني فأقبلت عليه وخيل إلى أنه يفتح لي ذراعيه ، ثم استكبرت أن أموت كافرا ولعلى خفت من الموت فالتمسيت للحياة عنذرا .

وسرت أضرب في الشوارع لا أدري إلى أين أذهب .. وأحسست بالجوع — وذلك غريب فاشتريت شطيرة وسرت أكل منها وتبعنى كلب ضال فألقيت إليه بلقمة ، ثم تبعنى وكأن في عينيه دعاء ، فألقيت إليه بالباقي ثم سرت أتلمظ .

قلت بينى وبين نفسى وكأننى صرت أحد الشعراء : « الكلاب الضالة على الأرض أنواعها كثيرة » .

عرفت أنني بعيد جدا عن البيت حين أفقت من ذهولي على صدمة في عمود النور .. وصلصل رأسي بالصدمة وكأنه كرة من النحاس ..

فقررت — وكأئنا كان هذا بسبب الصدمة — أن أسير نحو البيت وليكن ما يكون .

وابتسمت لي فوزية عند مدخل السلامك فلم ألتفت إليها .. أشياء كثيرة في الدنيا تأتي في غير أوقاتها .

وصعدت السلم وقلبي يدق ، ورأيت باب الشقة مفتوحا فدخلت .
وكأئنا كانت عمتي مستيقظة من النوم فورا . لأن وخما شديدا كان على ملاحظتها . كانت في الصلاة تلقى على الخادمة أمرا ساعة رأته . عليها قميص حرير أبيض يمسك جسمها ينجر على كعبها ، ويكشف عن صدرها وعضديها كأنها لم تكن تتوقع أن ترى أحدا .

وحملت مدهولة بعد أن فحصت وجهي ، ثم أمسكت برسغي كأنها تجس نبضي ، وقادتني إلى حجرة وجلست وتركتني واقفا ثم سألتني :

— مع من تشاجرت أيها المجنون ؟

فأجبت وعيني إلى الأرض :

— لم أتشاجر مع أحد .

فقلت بحدة :

— إذن فهل ضربت نفسك بنفسك .. هذه أشياء تدعو إلى الموت وتقصير

الأجل .. ما هذا ؟

ووقفت أمامي ورفعت ذراعها العارية الملقوفة حتى لمست جبيني .. كان هناك ورم في حجم الفوزة على هيئة نجم في جبهتي عندما صدمني العمود ، لكنني لم أشعر به ، ثم استطردت عمتي :

— وإذا عدت باكرا هكذا ؟

فهزني السؤال حتى كدت أسقط على الأرض . ولم أرسل إليها بصري بعد

(أشياء للذكرى)

أن عادت إلى جلستها ووضعت ساقا على ساق ، وجاء صوت من الحارة
ينادى على الملوخية في الوقت الذي نفذ فيه صبرها وصرخت بأعلى صوتها
تطلب الجواب ، فقلت باختصار :

... طردت ..

... طردت ؟ .. طردت ؟ .. لماذا ؟

هل كنت تقول الحقيقة لو أنك مكاني ؟ ما جدوى تصریحنا بالحقائق إذا
لم تكن نافعة ولا قادرة على تغيير موقفنا خصوصا عند الذين نكون في حاجة
إليهم .

فلم أرد . فأجابت هي :

... غشاش ؟

فلم أرد . فصرخت :

... تلعب طول العام وتغش في آخره .. هل كنت تغش ؟

فأومأت برأسي :

... نعم .

وقالت كلاما كثيرا وهي تلف في الحجرة وتهز أردافها ، وقبضتاها
مشكورتان ، لكن دموعي كانت كثيرة ، وعيناي اللتان عميتا من الدموع
كانتا متجهتين إلى حذائي الضيق الذي أرتديه والذي خلعه على زوج عمتي
التاجر .

ثم جلست وهي تلهث ، ثم وجهت إلى سؤال غريبا :

... ولد . هل تعرف ابن من أنت ؟

قلت بانكسار :

... نعم .



— ولد .. هل تعرف ابن من أنت ؟

— هيه .. ابن من ؟ قل .

— إنك تعرفين أبى .. إنه .. أخوك .

فخبطت بكفيها عى فخذها كأنما خاب ظننا فى الجواب ، ثم قامت إلى الحجره لتلفها من جديد ، ثم عادت تقول :

— أنا لم أسألك من أبىك .. هل تعرف ابن من أنت ؟ الغش ورائه ..

يا غشاش .

وانسحبت فى صمت أمشى فى حدائق الضيق إلى الحجره التى تؤوينى .. ثم بكيت أمام أبى عندما جاء وعلم بالموضوع ، وقد كان على غير مسا توقعه .. كان واثقا فى كل ما نقلته إليه ، وسارت قضيتى على قدمين لا بأس بهما لأنها فى هذه المرة كانت فى ساحة إنسان حاجتى طبيعىة إلى المعونة التى يقدمها إلى .

ولست أنسى لزواج عمتى هذا الفضل . قالها كلمة واحدة حين علم بالمأساة :

— كل الدنيا غشاشة يا ابنى .. صبرك بالله .

وضحك بكل وجهه حتى بعينه الحمراءوين وهو واقف يسعل على حوض الغسيل من أعماق صدره . على أن العام قد انقضى والسلام .. وسافرت إلى أبى فجأة فى المحطة الصحراوية وهجمت عليه أقبل يده وأخبره أننى نجحت وانتهى الإشكال .

فرمى الرجل قلنسوته الصوفية على الأرض من شدة الفرحة ، وأخذ ينادى على زملائه بطريقة تدعو إلى الذعر حتى جاءوا فقالوا :

— حرام يا شيخ .. ظننا حريقا شب فى المكان .. لكن .. ألف مبروك . وأطفأنا الحريق « بالشربات » والشاى ومشروبات أخرى .

وبدت لنا جزيرة خضراء في خضمنا المالح .. وبات أبى يحلم .
أما أنا فقد انطفأت الفرحة في قلبي بعد ما علم أبى بالخبر ، كأنما انتقل إليه
كل شيء . وبكت عمتي وهى تودعنى . بكت بحرقة لأن الألفة تصنع
العجائب . أما زوجها الساكت الغضوب ذو الوجه الأسمر الترابى فقد ودعنى
بلطف وهو يقهقه :

— صرت رجلا يا عوض وخلص ستر كنا ؟ عليه العوض .

ثم تغير المكان ..

واستقررت في أحد مصانع كفر الدوار . وألفت أسرة صغيرة .
سكنا حجرتين في الحى الشعبى ، وانتقل معى أخواى الصغيران إلى المدينة
ودخلا المدرسة هناك ، وأصبحت الحياة حلوة المذاق إلى درجة لا توصف ،
خصوصا في الليالى التى كان أبى يأتى إلينا فيها حاملا هدايا من الريف وحيا
ونقودا .

ونلتف نحن الأربعة حول الطعام ونأكل ونثرثر .

وتذكرت فوزية ذات مساء . في ليلة كانت خصيبة في حياتى كنت أحس
كأن في قلبى شيئا نشيطا ، لست أعرف كيف أصفه .

كان — مثلا — أشبه بحوض صاف تجرى فيه سمكة مرحة .. وكان حياة
دايقة تنصب منه وتعود إليه ، وكان في يدى مجلة وعينى على قصة حب ،
والوالدان نائمان . وأبى جالس يفتل شاربته وإذا بى أسأله فجأة :

— أبى .. ألا تريد أن تتزوج ؟

وخجلت من نفسى . وكأنما حدثت فرقة غير منتظرة من إلقاء هذا
السؤال . ففتح في عينيه على حين وقفت أصبعاه على الشارب الذى يفتله . ثم
ضحك ضحكة الذين يباهون بأنهم أذكاء وقال :

— أى الاثنين تقصد ؟ أتريد أنت أن أتزوج ، أم تريد أن أرد أمك إلى
عشرتى من جديد ؟

فارتبكت ، وساد صمت سمعنا خلاله أحد الولدين يستعيد وهو نائم بعض
ما أخذه فى المدرسة وقت النهار ، فانبرى الرجل يعلق على الموضوع :
— عوض . هل تسمع أخاك ؟ إنه يتكلم بما فى نفسه .. آه .. كأن الناس
لا ينسون حتى وهم نائمون .
— آسف يا أبى .. أنا آسف .

— أبدا لا داعى للأسف . تزوج إذا شئت لكن . أليس من الممكن أن
تعاوننى على تربية أحد أخويك ؟ واحد فقط . إن عمك عاوتتى وهى فى
بيت رجل أجنبى عنا . وكل ذلك من أجل الولدين .
وأطرق وسكت . ودخلت قفلة تملكها وتمسح فى الجدار كأنها تريد أن
تسرق ، فنظر إليها وكأنما ذكر حركة زوجته . ثم قام فأطفأ المصباح بعد أن
طردها . وفى الظلام ونحن مستقلقيان بدأ يحكى كأنه لم يجرؤ على أن يفعل ذلك
فى النور :

— بعد أن مات أبوها تركها فى كفالة أبى . يعنى جدك . وكانت وسيمة
مليحة لكنها عميقة لا يعرف سرها . وجهها جميل ونفسها مثل الخرابة .
وكان أبى يقول لى دائما أنها زوجة المستقبل . وكان ذلك طبيعيا .. يتيمة فى
بيت عمها ومعها شاب . فلماذا نربينا لغيرنا من الناس !
وكنت أحبها .. لا تتألم فهى غريبة عنا الآن . ولكنى ما كنت أعلم أنها
تحب إنسانا غيرى . شابا لا يملك إلا ملابس النظيفة . أوقاته مقسمة بين
السطو واللصوصية والجري وراء الصبايا .. وكان سعيد الحظ معهن مع أنه
شرير . وكنا إذا خلا بنا المكان أنا وهى وبدأت أكلمها على استحياء كلام من

يحب ابنة عمه ، أعرضت عني ، ونهرتني مرة فلطمتها مرة دون أن أشعر لكن ذلك لم يوقف المقدر فتزوجتها في ليلة شاتية .

وكان نحضاب الحناء لا يزال على كفيها حين استيقظنا في الليل على صراخ و صفير ، ثم علمنا أن أحد رجال القرية بات قتيلا بطلق نارى أثناء معركة واهتم فيها هذا الشاب المغرور . ورأيت كمدا على وجهها لكن فرحتى شغلتنى عن كمدها . وقبض عليه وزج في السجن وغاب في مظلماته سبع سنوات .

ثم تغيرت الدنيا فأصبحت أنا عاملا في مصلحة السكة الحديد .. وأصبحت هي أما لأربعة . تملك دارا مستقلة قريبة من الحقول وزوجها أصير من الجمل ووجهها حلو ونفسها في مثل خراب المقابر .

« وخرج السجين من سجنه . وكنت غائبا عن قرىتي تقريبا كما تذكر فإنك لم تكن طفلا .. حتى كانت ليلة .. شاتية موحلة سوداء » .

وسكت فلم يتكلم ولم أجرؤ على أن أستزيده من الحديث . كان شيئا شائكا ومن غير الممكن أن يسترسل فيه أكثر مما استرسل . غير أنى عدت إلى الماضى وحدى وبدون إرشاده لأننى أعرف الطريق . حتى نحيل إلى أن أختى الطفلة ستستيقظ من النوم .. وسأضعها في حجرى وهى تيكى في ظل المصباح المعلق على الحائط ، وسأنام حتى تصطدم ذقنى بأعلى رأسها ، وأن أمى ستدخل وتخلع جلبابها الأسود فإذا ما سألتها أين كانت كورته وقذفتنى به في وجهى فيسود الظلام من لفتح الهواء وانطفاء النور ، ثم ترقد وهى تدمدم وتسب أناسا كانوا السبب . هيه لقد عرفتهم أخيرا .

ولم يتكلم أبى ، ولم يكن نائما . سمعته يفرقع أصابعه ويتهد . وذكرت الليلة الهائلة التى جاء فيها فلم يجدها . وحمل القصب الذى كان يحمله . والماء .

الساخن الذى وضع رجله فيه . وجلسته المغلوبة ورأسه المحمول على كفيه وشعره الطويل وفمه ذو الرائحة المتغيرة ساعة انكفأ على ليوقظنى . والضرب والشتم وخروجها من البيت . وبكاء أبى أمام الحجره بعد أن خربت الدار . وانتظمت أنفاسه فى النوم وبقيت ساهرا أتخيل :
هناك فى الحقول كان يلقاها . ما أبشع ذلك .

ثم بذر فى نفسها الحقد والكراهية لرجل يراها .. هل هذا وضع طبيعى ؟ هل طبيعى أن تكون بقرة بين رجلين ؟ يطعمها واحد ويحلبها الثانى ؟ يأخذ الأول العناء ويأخذ الأخير اللذة ؟ هل هذا عدل ؟
حقيقة أن أبى رجل غير جميل . كان يدخل علينا فى أخريات الفترة التى يغيبها فى عمله أشعث أغبر كأنه راجع من الحرب .. لكن .. هل يكفى هذا عذرا لخيانة زوجته ؟ وإذا كفى فما ذنبنا — نحن أبناءها — حتى تخوننا ؟
أليس تخطيها لصفنا المتمدد على الخصر فى ظلمة الليل وخروجها إلى الحقول داخلا فى بند الخيانة ؟

ثم قلت أخيرا : إن أبى على حق .. يجب أن تظل هذه المرأة غريبة عنا . لكننى نمت وصورتها أمام بصرى فى الظلام منكفئة فى حزن ومذلة ونديها خارج من فتحة ثوبها وطفل يرضعه . ويخيل إلى أن هذا الطفل هو .. أنا ..
وانقضى عام واحد على هذه الذكريات . عام ليس غير .
كنا فى البيت جميعا فى آخر النهار وكان الوقت صيفا والحري يخنق الأنفاس ساعة طرقت الباب يد خمنت أنها يد صاحبة البيت التى جاءت تطلب شيئا أو تنقل خبيرا .

وحين فتحت رأيت وجه امرأة لم أتبينه تماما ولم أعرفه لفورى ، فلما رأته صاحبه على وجهى دلائل عدم التعارف خنقتها الدموع . وعند ذلك

فقط . فطننت إلى أنها أمى .

كنت واقفا في فتحة الباب سادا له تقريبا . أما هي فكانت على بسطة السلم في ثوب ريفى أسود أجرب على صدره شريط من الحرير مرصع بالخرز وتحت هذا الشريط مباشرة كان « النبعان » اللذان وهبا لى الدر وهبا لى الحياة . وأمامها حقيبة خشبية قديمة بنية ناصلة اللون مقللة على حاجاتها . ومن إحدى زواياها أطل شيء أسود لعله طرف طرحة أو طرف ثوب . أما وجهها فقد كان غريبا ، كل عضو منه بقى في موضعه من غير شك ، لكن هيئته العامة كانت غير جميلة ، وعليها كثير من شمس الريف وكثيرا جدا من سوء التغذية وشظف العيش فأدركت أنها كانت تشتغل في الحقول . وكفها حين صافحتنى بها كانت في خشونة الليف . وفوق حاجبها تماما أثر « بطحة » وفوق شفتها العليا آثار شارب ، وعلى جسمها كله آثار ذل . وكان الولدان يلعبان في الداخل أو يذاكران ، وأنا على الوضع الذى وصفته .. وأخيرا أقفت على قولها :

— هل أدخل ؟

فوسعت لها الطريق في صمت بحركة الآلة فانحنت على حقيبتها وحملتها ودخلت بها وهى منحنية قليلا ، وعندما رآها الغلامان صاحبا في فرح لا يخلو من المفاجأة : « أما .. أما .. » وتعلق كل بذراع ، أما هي فقد أخذت تبيكى .

وتركتها مع الطفلين ولذت بالحجرة الأخرى وعلى رأسى شبه دقائق المطارق وفى عيني دموع كثيرة .

ودخل المساء بليدا ثقيلنا نحاليا من المرح المعهود .. فخرجت أضرب على الطريق الرئيسى الذى يصلنا بالإسكندرية تحت ليلة حارة وسماء لا قمر فيها .



سألها هل تعيش؟ فأجابت بنعم ثم انخرطت في البكاء

و كنت راكد الأفكار شأن الموحول الذى استنفد قواه كلها فلم يبق له إلا أن يسكت . وعندما عدت إلى البيت كان الولدان قد ناما . وكانت الأم ساهرة بالطبع . سألتها هل تعشت ؟ فأجابت بنعم ثم انخرطت فى البكاء .. سألتها بعينين دامعتين ولهجة من التأنيب :

— لماذا تبكين الآن ؟

— أو ان البكاء لم يفت بعد .

فتهدت ولم أردد . ثم قلت بعد برهة :

— أعرف ذلك .

— صحيح .

ثم قالت بعد سكتة :

— إن أباك يأتي إلى هنا ؟ .. طبعاً .

ثم ألهمتها غريزة حب البقاء طريقة جديدة للدفاع عن نفسها ، فتعرضت للماضى بادئة من النقطة التى تجعل القلوب فى صفها هى فوصفت آلامها بعد أن تركت دار أبى .

لم يَحتملها بيت خالها إلا ريثما مات خالها ، وبعد أن مات أحست بالغربة مرتين . كانت خادمة فى البيت وراعية فى الحقل ، وطاردت اللعنة وصاحبها المرض . وأخيراً ضاق بها هؤلاء الذين كانت تخدمهم بلا أجر . وأغلظت لها إحدى نساء الدار القول ذات يوم وذكرت بأشياء منها أن لها من بطنها رجلاً يعيش فى مجبوحة فلا داعى لأن تشقى نفسها أو غيرها بطبيعة الحال .

وصممت على أن تخرج ولو أكلتها الذئاب . ورسمت خطة هى أن تخرج على ابنها أولاً فى كفر الدوار فإن قبلها فى بيته انحلت المشكلة . وإلا فإنها تواصل سيرها إلى الإسكندرية حيث تنضم إلى الجالية التى هاجرت من قرية

خالها وأقامت هناك في أكواخ « غيط العنب » ثم تزاول عملا ما من الأعمال التي تحتاج إلى أيدي النساء .

وقلت لها فجأة بعد أن فرغت من قصتها بصوت متأثر :

— أنت أمي على كل حال . هل يمكن أن تكوني غير ذلك ؟ .

قالت بنبرات مرتعشة وهي تنظر نحو حجرها وكأنها تخشى ألا أصدق :
— أنت .. ابن .. حلال .

على أن الإشكال الحقيقي كان قائما في التقاء الزوجين القديمين عندي ، وإذا كان أبي قد اعتبرها امرأة غريبة عنه فإنه لم يكن من المستطاع أن اعتبرها امرأة غريبة عني ، وإذا كان من العدل أن توقع العقوبة فليس من العدل أن توقع العقوبة مرتين ، فليعاقبها .. إذن — أبي وحده . وقد عاقبها وانتهى الأمر .

قلت لأمي :

— هناك شيء مهم ، هو أنه يجب ألا تقابليه حتى أرسم لك خطة .
واتفقنا ..

وبقيت أنتظر ، ولكن أبي لم يحضر إلينا .

قلقت عليه ، وقلت في نفسي : إن القلوب تحترق الحجب وتتطلع إلى ما

قد ينتظرها فتراخي في شبه ضباب . لماذا لم يحضر ؟

كان الأولاد في الخارج وكنت أنا في الحمام أغتسل بالماء البارد من شدة حرارة اليوم . وطرق الباب . وكانت أمي وحدها . وطبيعي أن تذهب ففتتح ، وكأنها نسيت النصيحة . ثم ماذا كانت تجدتها النصيحة في ذلك الوقت ؟

ووقف الزوجان وجها لوجه بعد مرور سبع سنوات . كان هو خارج

العتبة . وكانت هي من الداخل يفصل بينهما متر واحد . وحملني فيها بذعر
وقال كلمة لم تخرج من فمه إلا بعسر :
— هنا .. أيضا .

ثم استدار وهبط السلم .. رجع من حيث أتى دون أن يلقي واحدا من
أبنائه أو يلقي عليهم سلاما . وحملت هي من على السلم الهدايا التي كان
يصحبها معه مؤملا أن يقضى تحت ظلها سهرة سعيدة . ودخلت دامعة
العينين ..

وخرجت من الحمام فرأيتها تبكي ، علمت ملخص القصة فلم أستطع أن
أبين أين حكمتي : هل ألوم أبي ؟ لا يستطيع أحد أن يجبره على شيء .
لكنني قلت لها :

— لا تبكي .

— أوان البكاء لم يفت بعد .

— لكن .. لا تبكي أيضا . ألم أقل لك أنه من غير الممكن أن تكوني امرأة
غير أمي ؟ لا تبكي إذن .

ثم استأنفنا حياة أكثر هدوءا ، واخترت المعسكر الذي أنحاز إليه .
وبعد بضعة أيام تلقيت من أبي خطابا فحواه :

إنه يشكرني .. ولو أنه تألم لكن .. كان يعرف أنها أمي .

كل ما يرجوه مني ألا أتم عليه فعلته لأنه لا يستطيع أن يتحمل فوق طاقته
الشخصية ، على أن عملي وإن كان قاسيا بالنسبة إليه هو . فإنه يدل على أنني
ابن حلال .

وقلت في نفسي وفي عيني دموع : لقد اتفق الاثنان على هذا ، قالها أبي

وقالتها أمي .

وأبلغني أنى أنه بات ليلته في فندق وأنه ظل يبكى طول الليل .
هل يعتبر نفسه « نخرج من المولد بلا حمص » ؟ هل يتزوج ويعاشر امرأة
أخرى وينجب أطفالا آخرين ؟ هو يظن أن الأوان قد فات ، وأن ولدا آوى
أما لم تكن مخلصه لن يبخل في المستقبل بالمعطف على شيخوخة أب كان مخلصا
مجتهدا .

وصف لي قهوة قريبة من الحى لألقاه بها أنا وإخوتي كل شهر مرة ..
وصار يأتي إلينا كل شهر يحمل الهدايا والحب والدموع والقبلات ،
وكانت أمى تأكل من الهدايا فقط وكنت أنا وإخوتي نختص بالباقي .
وبعد أن قابلته على القهوة أول مرة وتحديثنا في الخطيئة وحللتناها حتى
وصلنا إلى نهايتها التى هى التوبة .. رأيت من أبى إصرارا على موقفه من أن
التوبة شىء والمغفرة شىء آخر .

وعندئذ عرفت شيئا لن أنساه : « أن التوبة أرخص شىء يعطى ، وأن
الغفران أعز شىء يمنح » .

الطالع السعيد

لم تكن الدار التي نساكنها واسعة جدا . ولم يكن عددنا قليلا ليصبح
متناسبا مع الدار ، كنا ستة من الأولاد بين بنين وبنات يحترف أبونا مهنة غير
الزراعة ولو أننا من سكان الريف .

كان تاجرا منتقلا يبيع الأقمشة على حمار . رجلا طيبا مسالما يركب دابته
كل يوم قبل طلوع الشمس ليذهب إلى الأسواق في القرى ثم يعود آخر النهار .
و كنت أنتظر عودته على الطريق كل يوم فأعرف حالة السوق التي كان
فيها من منظر الأشياء التي يصطحبها معه : فإذا كانت الأمور على ما يرام رأيت
متربعا على الحزمة الكبيرة من الأقمشة على ظهر حماره وأمامه « المتر » الخشبي
وعلى يمينه ورقة ملفوفة أعرف فيها شريحة اللحم ، وعلى يساره قرطاس من
فاكهة الموسم . وإذا كانت الأمور سيئة في السوق لا نرى أمامه إلا
(المتر) !!

وإذا كانت الأمور بين بين ، متوسطة الحال ، أراه يحتضن « كرنية »
ضخمة أو يضع أبق من « البطاطا » .

وعندما يطل حماره عتبة الدار تحف إليه أمي مشمرة أذيال جلابها الزاهي
ذي الكرنيش الطويل فتأخذ ما بين يديه من طعام . ثم تعاونه معنا في إنزال
حمولة القماش . وبعد قليل نتجمع كلنا في مكان واحد . هو منظر في آخر
الدهليز . حيث تبدأ حياة الأسرة الحقيقية .. فينفض (الرجل) عن نفسه
متاعب النهار بما يحكيه من حوادث ، وتشارك (المرأة) في مسح هذه المتاعب
بنظرة لينة أو كلمة طيبة أو لقمة هنية .

كنا نتجمع حول والدينا في شبه حلقة حتى تناول عشاءنا .. ثم تفرقنا المضاجع .

وفي الأيام التي يعود أبى فيها من السوق يحمل لحما ، كنت أعتبرها من ليالى العيد ، لأننى غالباً ما كنت أقضى فترة ما بعد الغروب في الخارج أجرى مع الصبيان نطارد الضفادع أو نغير على أعشاب الطيور ، أفعل ذلك بأمر أمى ريثما ينضج اللحم على الكانون ، ثم أدخل فتملاً أنفى رائحة البصل المخروط في السمن وهو يتنفس على النار أنفاساً تملأ الدار وجزءاً من الحارة .
وحول صينية العشاء نجلس نحن الثمانية ليأخذ كل منا قطعة من الرزق الذى جرى من أجله طول النهار رجل على ظهر حماره .



وصحبت أبى في هذا اليوم إلى السوق لأننا في أجازة الصيف والمدارس معطلة وحينما ركبت خلفه كان النعاس لا يزال في رأسى ، كنت غير يقظ تماماً ولو أن أمى غسلت لى وجهى بماء بات في الأبريق حتى برده ندى الليل ، ولكن كلمة واحدة أيقظتنى من النوم ، أيقظتنى تماماً . سمعت أمى تقولها بعد أن وضعتنى خلف أبى على الحمولة :

— حظ أبىك من حظك .. أنت ذاهب معه إلى السوق .

وضحكت أمى . وتحرك الحمار ونخطا العتبة وأمسك الطريق من أوله ومشى يثن . وألصقت جبتهى بظهر أبى ورحت في شبه نومة لكنى كنت — في الواقع — أحن ما قد يحدث في السوق .. هل سيعود وليس أمامه إلا متره الخشبي .. أو سيحمل ورقة كبيرة من اللحم .. أو يا ترى سيملاً حجرى بكمية من البطاطا 1٩

وعند عودتنا آخر النهار كانت أمي ممتلئة شوقا. ولما دخلنا فحصت بعينها ما بين أيدينا من أشياء وابتسمت . كانت الأمور تدل على أنها سارت سيرا طيبا فقد كان معنا كرنب ولحم وخير كثير . وكانت ورقة اللحم ضخمة لم تذكر أمي أنها رأت مثلها منذ ثلاث سنوات .

ونزلت في زهو كأنني أنا الذي صنعت كل شيء . وعاونتهم في نقل الحمولة إلى الداخل وربطت الحمار بنفسى وطردت عن وجهه ذبابة من النوع الذي يولع بالحیوان ، ثم استأذنت وخرجت ألعب حتى يطهى الطعام .

وعند عودتي كان على الصينية كرنب محشى ولحم مسلوق وأشياء أخرى .. وكنت جائعا مجهدا وكان بقية الأطفال جياعا لأن أمي تأخرت في طهو الطعام . وجلس أبى متربعا وظهره إلى الحائط يتمم بختام الصلاة ، وتزاحمنا كما تزاحم العصافير ، فإذا بأختى الأصغر منى تلكنزنى بكوعها في جنبى ، وأوجعتنى الضربة ، وبحركة آلية لا أكاد أجزم أنني كنت أقصدها ، رددتها إليها على وجهها وكانت بظهر يدي . فانغرت سنتها في شفتها فسال منها الدم . والدم دائما يزعج الناس ، والأطفال على وجه الخصوص . فأخذت تبكى كأنها صدمتها عربة أو أصابتها رصاصة . وانقلبت التسييحاحات في فم أبى إلى حوقلة تدل على الأسف . وظل جامدا في مكانه وظهره إلى الحائط ، في الوقت الذى استدارت فيه أمي وأعطتني صفعة على وجهى .

وحوقل أبى بصوت مرتفع جدا وضج الصغار بالضحك . وامتدت يد طفلة بنت ثلاث سنوات إلى الطعام من تلقاء نفسها فزاد الهرج والمرج ، وخيل إلى أنهم يسخرون منى وأنى أنا الرجل الأول على مائدة العشاء وأن هذه الخيرات كلها من ثمرات عرقى أو من طالع سعدى على الأقل . فتأخرت إلى الخلف مضربا عن العشاء ، وتمددت في الركن بعيدا وووجهى إلى الحائط

الداكن .

لا أذكر أنني فعلت هذا أكثر من أربع مرات في صباى الأول ، لكن الذى
غاظنى من أمى أنها سارعت باتهامى أن هذه هى خصالى . دائما دائما !!
عادة يجب أن أؤدب عليها .. وعلق الصبيان خصوصا تلك التى كانت سبب
المشكلة ، ثم جعلوا يضحكون .

ومنذ بدأت حركة المضغ بدأ الجوع يعضنى بأسنانه وامتلات عيناى
بالدموع ، فلم يكن ينقصنى سوى كلمة تثيرنى .
وأحسست لأول مرة أن صوت المضغ أقبح الأصوات فى الدنيا .. ولم
يكن من المعقول أن أقوم بلا دعوة فأرجع إلى الصينية ، لذلك قررت وأنا
أرغب خيال وجهى مرسوما على الحائط أن أقوم فأتعشى حتى ولو دعانى
أصغر الأطفال .

وما لبث الفرج أن جاء فى صوت أبى :

— عيب يا إبراهيم .. تعال كل !

ولم أقم فورا كما تقتضى الخطة .. تلكأت بضع ثوان فترت بعدها حميتى
ووجدت أن الكرامة تحم على ألا أسارع هكذا .. ثم فلسفت الموقف .. لماذا
لا تكون الدعوة من أمى ؟ إنها التى عقدت العقدة فعليا إذن حلها ..
فلأنتظر حتى تنادبنى أمى بنفسها .

وجاء صوت من هناك يقول :

— يا سلام .. آل عامل راجل !

وكان صوت أخى الذى يصغرنى فاشتد غيظى حتى كدت أقوم فأبطش
به .. ما هذه الشماتة ؟ أليس هذا كله من خيرات طالع سعدى ؟ ربما لو لم
أكن مع أبى لما باع ملابس العروسة فى هذا اليوم ولعاد إليهم بمتره الخشبي

ولا شيء سواه .

وخفت أن أرد عليه فيقال إننى أتمحك ، فتهددت ثم أجهشت بالبكاء
وعندئذ ضحك الأطفال :

— يا عيني !!

تمنيت بعدما أن ينطفئ المصباح أو أن تهجم عليهم قطعة أو كلب .. أن
يقع أى حادث ..

ونادتنى أمى وهى تمزج الحنان بالشتائم فعز على أن تدعونى بهذه
الطريقة .. وكانت أصوات الملاعق فى الأطباق الخزفية تصدع رأسى ،
وأخيرا صممت على ألا أرد عليها .. وقررت هى ألا تنادينى مرة أخرى .
وحين خفت الحركة وقام الأولاد ليغسلوا أيديهم جاءت أمى تهزنى
وأحسست بأنفاسها تلمس وجهى وكانت رائحة الطبخ تفوح من كفيها ..
وكنت واثقا أنها احتفظت لى بنصيبي ، لكن عز على أن آكل آخر الناس
وأتناول الفضلة فتناومت حتى اعتقدت أمى أنني نائم ، فمصصت بشفتيها
ولعنت الصغيرة التى كانت سببا فى الإشكال . فلم يكن هناك بد من أن ألوذ
بالصمت حتى رحت فى النوم العميق .

وفى الصباح . كان كل شيء قد نسى . حتى معدتى نسيت جوعها ..
وأيقظتنى أمى بلطف شديد وصبت الماء البارد من الإبريق لأغسل وجهى
فتكمل بقطتي فأركب مع أبى إلى السوق .

لم يكن على وجه أحد منهما اعتذار كأن الموضوع غير ذى بال . لكنها
قدمت لى فطورا دسته فى جيب جليابى كان على سبيل التعويض شقة من خبز
القمح وبيضا وورقة فيها توابل لتفتح شهيتى .

ومشى الحمار بحمولة كل يوم : بالحزمة الكبيرة وعليها راكبان . أنا

وأبى . وكان أبى يقرأ دعاء موزونا فى صوت هامس جعلنى أندمج فيه بعد قليل
كأننى دخلت فى الجنة . فأسندت جبهتى إلى ظهر أبى واحتضنته بذراعى
ورحت فى شبه نوم .

كنت أحلم بمحوادث البارحة . بميئتى بلا عشاء . وبالخيرات التى كنت
سببا فى عودتنا بها آخر اليوم . لقد باع أمس نحو من عشرين جلبابا وأقمشة
للتنجيد وغير ذلك حملها أهل العروس فى صرة كبيرة . وكان يومه رائعا لكن
ليلتى أنا كانت على العكس ..

وأفقت من أحلامي فألفيت أبى لا يزال يهمس بدعائه . وكانت الحقول
على الجانبين خالية من الزرع . ليس فيها إلا السجاد . والشمس لم تخط بعد
خطواتها الأولى . والندى يسقط من أغصان الشجر على رأسنا من حين إلى
حين . وقطع أبى دعاءه وسألنى :

هل نمت ؟

— لا . لم أتم يا أبى .

وعاد كل منا إلى ما كان فيه من قبل . كان أبى يسأل الله أن يوسع له فى رزقه
وكنت أنا مشغولا بما سنحمله من السوق آخر اليوم إن استجاب الله دعاءه .
حتى انتهى الطريق .

ودخلنا إلى الساحة الكبيرة حيث سوق القرية، ورتب أبى بضاعته — وأنا
فى مساعدته — وعلق المناديل الحريرية الزاهية اللون على واجهة المظلة التى
تقينا من الشمس . وما ارتفع النهار أو كاد حتى أصبح المكان شبه خلية ،
تفوح من أطرافه روائح الزيت المقدوح مختلطة برائحة التراب .
وشغلنى النجاح الذى لقيه أبى فى هذا اليوم أيضا عن أن أتناول فطورى
الذى حملته معى .. كنت حريصا على أن أراقب البضاعة المنشورة حولنا حتى

لا يسرق منها شيء . وأعد وراءه الأمتار التي يقيسها حتى لا يخطيء . وأعيد شيئا إلى مكانه أو أناوله شيئا يطلبه . وبين هذا وذاك — في سرحة صغيرة من سرحات الذهن — أتصور سعادة أمي في المساء بعد يومنا الرابع وخبرنا الكثير وابتسامه السخرية القوية التي سأسدها إلى وجوه من سخروا مني ليلة البارحة .. لأنني غضبت على العشاء ..

ولم نستطع أن نتغدى ظهرا لأن حركة السوق لم تفتت .
وقال أمي لامرأة عجوز كانت تشتري جهازا لبتها :
— يخيل لي أن فتيات هذه القرية سيتزوجن جميعا خلال أسبوع .
فضحكت العجوز وقالت وهي تسدد إليه نظرة لئيمة :
— إن تجار الخناء يسرهم أن تكثر الأعراس .
وكان على وجه أمي ابتسامه مجهدة لكنها سعيدة . ولما مالت الشمس خفت الحركة فتناولنا غداءنا ، وأرسلني أمي فاشترت أشياء لنعود بها إلى الدار .

لكن ليلتنا لم تكن سعيدة كما قد يخيل إليك ..
كانت عودتنا متأخرة أكثر من العادة وكان الأطفال ينتظرون بوجوه
اثقلها الملل وعيون أثقلها النوم . ولما رأوا في وجوهنا ما يسوء ، ودقت أمي
صدرها عند سماع الخبر ، انزوا في ركن يتصتون ..
ولم يقدر للحم أن ينضج ولا للنار أن توقد في هذا المساء ، فأوى أكثر
الأطفال إلى مضاجعهم في صمت .
أما أنا فإني لم أكن غاضبا ولكنني كنت ممدودا ووجهي إلى الحائط أنظر

إلى ظله وأستعيد حوادث النهار وأنصت إلى الحديث الفاتر الذى يتسقطه
والدى وإلى أنفاس النائمين الذين سهروا ليلة البارحة يضحكون منى فى
شماتة . وقلت فى نفسى

— ها نحن أولاء جميعا نقضى أمسية غير سعيدة .. من كان يظن أن أمور
هذا اليوم الرابع تنتهى هذه النهاية !! وجاءنى صوت أبى وهو يقول لأمى :
— نستطيع أن نفرض أى فرض يريحنا .. إن الحاج عبد الرحيم نسلت
كل نقوده وهو ذاهب إلى الإسكندرية ليشتري بضاعة .. ولم يمت ولم يجمع
أبناؤه .. رزقه الله .. ومسألتنا إذا قيست بهذه مسألة سهلة .
فقلت أمى :

— صحيح صحيح .. لكن ماذا كان يعمل طويل اللسان هذا معك طول
اليوم ١٢

قلت فى نفسى : إن الريح ستهب فى اتجاهى . سيقع الذنب على . وخفق
قلبى . وعادت أمى تقول لكن بحنان شديد :

— لا تنس أنك كنت تشتغل طول النهار فلا بد أن تتعشى .
وتهدأ أبى . وساد الصمت لأن أمى قامت تجهز له عشاء . وشممت رائحة
بيض مقلى وتوابل ونعناع . وفطنت أمى إلى أننى لم أكل فنادتنى .. فلم أرد .
وعادت ذكريات ليلة البارحة لكن .. كان هناك أطفال غيرى ينامون
محزونين . وأعادت أمى النداء وهزتنى فتناومت ، فانصرفت إلى أبى الذى
طلب منها أن تناوله القلة .

وأخذ النوم يداعب أجفانى وأنا أستمع إلى صوت المضغ ، وأستعيد
حوادث النصف الثانى من اليوم الرابع :

عودتى مع التجار من السوق آخر النهار وتركى أبى وحده ، ثم رجوعى

إلى أبى مرة ثانية ، ثم عودتنا معا . ثم منظر أمى وهى واقفة فى فتحة الباب متلهفة على معرفة الخير . فلما رأيت الحمار يخطو داخل العتبة عرفت كل شىء فدقت صدرها .. كان الحمار أسود كأنه قطعة من الليل ، وجاء صوتها :

— إن حمارنا أبيض .. ماذا جرى لى ؟

وأجابها صوت غليظ :

— سرق فى السوق .. و ..

وأخذ النوم يثقل على ، وتصورت نحاو فى وأنا عائد وحيدا إلى أبى بحمار عم عثمان لكى نحمل عليه البضاعة التى فقدنا عائلها ، « ثم أخذت أحس كأننى أعد الأمتار وأبى يقيس ، والنقود وأبى يحسب .. ووجدت الحياة ربحا غير نحالض أو خسارة على طول الخط » .

وكاننى عدت من جديد أعد مع أبى الأمتار التى يقيسها .. واحد ،

اثنين .. ثلاثة ..

ولم أستيقظ إلا صباحا ، وكان أبى قد رحل ليشتري دابة جديدة ..

أربعه أجنحة

لم يكن يستطيع أن يفرق بين هاتين المرأتين .. كانتا كأنهما توأمتان .. بل من الممكن أن يقال إنهما صبتا في قالب واحد .. خصوصا إذا تفرست في وجهيهما ورأيت العقدة السحرية التي تناوش القلب على قصبة الأنف بالقرب من نهايته .

وهاتان المرأتان ، هما أمه وخالته .

كانتا حبيبتين إلى أقصى حدود الحب . لعل السر في ذلك راجع إلى أن والديهما كانا يحسنان رعاية العلاقات بين الأبناء . أو لعل سببا آخر قد وهبهما هذه العلاقة ، وهو أنهما كانتا وجيدتين فلا أخوة ولا أخوات . كان أبوهما يقول لهما كلما عاد من الحقل ، وعلى وجهه الطيب ابتسامة السعداء :

— إننى أملك اثنين مثلكما في الحقل يا بنيتي .. اثنتان تمنحون على مثلكما .

فإذا ما تساءلت الكبرى أو الصغرى عن هذا اللغز عند سماعه أول مرة ، تحولت ابتسامة السعداء على فم الأب إلى ضحكة فوارة . وأخبرهما أنه يقصد شجرتين من التوت لهما ظل وارف . ينال تحتها الراحة ويشرب الماء ، أو يتناول الغداء ثم يتمدد ساعة الظهيرة .

والحب شيء يورث . نأخذه عن آبائنا مثل الدين والعقار المنقول .. وكان يسمع اسم خالته يتردد كثيرا على لسان أمه .. وملابسها في القرية كانت من المدينة ، تبعث بها أختها مخيطة أو غير مخيطة ، وكثيرا ما رأى أمه تباهى جاريتها

بالألوان التي تأتيها من الإسكندرية .. ورأى حالته تأتي لزيارتهم في الحين بعد الحين ، وسمع نجوى الأختين عن الماضي أيام كانتا تحت جناح الأبوين ، قبل أن يفرق الزواج حبات العقد ، وتشتت الأيام شمل الأسرة الصغيرة .
كان ذلك وهو صبي في حدود الثانية عشرة من عمره ، يخفق قلبه للجمال في إطار الطبيعة ، والأم ، والألوان الزاهية . وتخالطه الفرحة في ليالي العيد ليلة بيت يحلم بالمصروف والمراجيح والرحلة إلى البندر .. أما فيما عدا ذلك فقد كان ريفيا ، يأمل أبوه أن يكبر حتى يساعده في إدارة وإبور الطحين الذي يدر أرباحا كثيرة .

وبعد أن يخرج هذا الغلام من المدرسة كل يوم ، يذهب إلى الوابور ليتسلى برؤية الزحام وميزان الحبوب والاختلاف على الموزون ، وبائعة الترمس التي تجلس عند مدخل المطحن ، والطحان البدين ذي الوجه القبيح ، والصوت المحبوس ، وهو يناوش النسوة ، وكان يشعر أنه يطوف بمملكة أبيه ، وأن سنين غير طويلة تفصله عن شيعين هامين سمع والديه يهمسان بهما أكثر من مرة ، هما : إدارة المطحن .. ثم .. الزواج .

تمنى بينه وبين نفسه أن يسمع أحدهما ذات مرة يعلن اسم البنية التي ستكون عروسا له بعد أن يكبر .. لماذا لا تقول له أمه مثلا : أنا ستزوجك سعاد بنت خالتك .. إن أمه تحب أختها وهو أيضا يحب سعاد ..

ومنذ الصيف قبل الماضي وعيناه لم تقعا عليها ، لغتها لينة ، وثوبها قصير لا يكاد يغطي الركبة ، جعل عيون القرويين تحمق عند نهايته كأنهم يحاولون أن يعرفوها بأنظارهم .. كانت آنذاك بنت ثمان سنوات ، إنه يكبرها بعامين . وقد أخذته الغيرة عليها حين نظر أحد الفلاحين إلى فخذهما وهي تلعب بالحبل ، وأمسك نفسه أن يتشاجر . ثم قاد بنت خالته من معصمها حيث لعبا

معا بعيدا عن الطريق العام ، ويذكر أنه لم ينم بعد سفرها عدة ليال ، وأنه كان يحملق في وجه النهار كأنه يسأله عن خبرها .

نعم ، عندما يكبر سيدير المطحن ، ليس في هذا إشكال . لكن الإشكال الحقيقي كائن في الفتاة التي سيتزوجها بعدما يكبر ..

كل البنات اللاتي يذهبن معه إلى المدرسة لا يتسامين إلى جمالها ، ولا الشال الملون الذي تتغطى به في الشتاء ، ولا طريقة الكلام ولا اللبس بالحبل .. وكل شيء في سعاد بمقدار كأنه مقيس مفصل مثل ثوبها وحزامها وغدائر شعرها المجدولة في ضفيرة واحدة تنتهي غالبا بشریط من الحرير يشاكل لون الفستان . كان الناس يتحدثون بأسف شديد عما تعانيه المدينة الكبيرة في هذا الصيف . كانت الحرب الثانية في ذلك الوقت أشبه بحريق مختلط المعالم .. وقنابل مختلفة الجنسية تتساقط على المدينة المصرية ، مدينة الإسكندرية ، ليلا ونهارا ، من أجل قضية ليس لنا فيها رأى ، وبين عشية وضحاها امتلأت قرى الوجه البحرى بالمهاجرين من النساء والأطفال وغير القادرين على العمل . ورأى الصبى وجوها لم يكن يراها واستمع إلى الأهوال التي حملها المهاجرون على ألسنتهم وعلى وجوههم وملاح أطفالم . ثم سمع دعوات أمه وابتها لها إلى الله من أجل أختها .. فتوقع أن يراها في القرية .

وعبثا حاولت الأخت أن تعلم عن أختها في المدينة خيرا ، فلم يعودوا يترقبون إلا النبأ الفاجع أو الصمت السلبي الذي يستحيل مع مرور الزمن إلى ما يسمى « فقدا » ، وهو من أشد أنواع « الموت » هولا لأنه لا يرمز له بقبر .

وسهر الغلام في فراشه عدة ليال يستعيد خياله — في ذعر وحمى — قصة الجسم الذي ظل ماشيا بعد أن خطفت الشظية رأسه ، والأم التي حملت

ومسادة السرير وهربت إلى الخبأ متوهمة أنها حملت طفلها . وفي سكون الليل يزقزق طير قلق أو يصرصر أحد الجنادب ، أو يخور ثور في حظيرة ، فيذكر الغلام أنه في الريف . لكنه كان يسائل نفسه في قلق وحنين يناسب هذا العمر .. ترى ماذا جرى لسعاد ١٩

وفي أحلك ساعات اليأس قد يفتح باب الرجاء .. ولم يصدق الصبي عينيه حين رأى خالته وزوجها وبنتهما سعاد وأولادهما الآخرين . وجوههم قد فقدت بشاشتها ، حتى سعاد كانت أشبه بوردة نصف أوراقها قد تساقط ، في صحبتهم متاع خفيف وهم ثقيل . ولم يكن في خاطرهم شيء إلا أن يتساءلوا :

— من أجل ماذا نتحمل هذا العذاب ١٩

وعاد الزوج إلى الإسكندرية بعد أن ترك أسرته في الريف .. واشترطت عليه زوجته ألا يبيت في المدينة بعد انتهاء عمله في المستشفى كموظف ، بل يبيت في إحدى الضواحي كما تفعل غالبية الموظفين ، ثم يعود إلى عمله في الصباح .. وأوصته أن يكتب لهم يوماً بعد يوم حتى يطمئنوا عليه . وإذا كان الغلام قد نغم على الحرب قنابلها وأهوالها ، فإنه قد حمد لها أنها أجبرت سعاد على أن تقيم في بيتهم مدة غير قصيرة . ففي الدار الواسعة ذات الحجرات المصفوفة على هيئة طابور ، نزلت الأسرة في حجرتين متجاورتين ، إحداهما لزوج الخالة عندما تتيح له فرصة الحضور ، والأخرى لبقية أفراد أسرته .

وفي هذه الدار وهذا الصيف ولدت قصة حب لإنسانين لا يزالان عند « التحويلة » التي تفصلنا عن نزعات الطفولة وعن أفكار الملائكة ، وإن لم نكن قد قطعنا بقية الطريق حتى نصير بشرا من الطين ..

يلعبان بالحبل ولكن نخلسة ، ويجريان وراء الكرة ولكن في ساحة الدار .
وحملها مرة بين ذراعيه لتستطيع يداها أن تتأولا مندبلها المنسولة من فوق
حبل عال . وفوق سطح الدار بعثر اللعب وهواء العصر شعرها الناعم فانزويا
في ركن حيث أخذ يعيد لها فرقة وتصفيقه . وكانت معتمدة برأسها على كتفه
وعيناها اللتان تكمن في أعماقهما البعيدة أمارات الأنوثة ، تنظران إلى وجهه
في سكون ، وأنفاسهما منتظمة من فرط الطمأنينة ، يتنفسان كالقط النائم ..
وفجأة أحس أن هذا الكائن يمكن امتلاكه . كائن ابن عشر سنوات ..
يمكن أن يربطه إليه .. أن يشده إلى نفسه فيصبحا شيئين متصلين أو شيئا
واحدا . لكن ما هي الطريقة ؟

ومال نحوها يريد أن يقبلها ، فجفلت وجرت حيث نزلت إلى الطبقة
السفلى من الدار ..

ولم يرها الغلام إلا في ضحا اليوم التالي . كان كلاهما قد نسي من أمس
كل ما يسيء ، ولم يعد يذكر إلا كل ما يشرح ، وهذه هي الخطأ التي تمشي
بها العلاقات عندما ينسج الحب خيوطها .

قال لها باسمها ، وعلى محياه دليل الحماسة :

هل عرفت ذلك الطائر ؟

— أى طائر ؟

— الذى كان يغنى صباح أمس .

— الذى يقول : « وحدوا ربكم .. وحدوا ربكم ؟ » .

— لا .. لم أعرفه بعد .. ألم تعدنى أن تخبرنى باسمه .. ؟

فأجاب في زهو المنتصرين :

— إنه الحمامة ..

وضحك الغلام وضحكت الصبية في الدار الساكنة في الريف الهادىء ،
على الرغم مما كان يلقاه الكبار في المدينة المظلومة .
ولم تمض ساعات حتى عاد الغلام يفتش عنها ، كان وجهه محتقنا يعرف
من رآه أنه سار في الشمس مسافة طويلة .. وبين كتفيه من الخلف عرق يبلل
جلبابه .. لكن ابتسامة السعادة كانت تخالط بقايا تعب .
دخل الدار يتلصص حريصا على ألا يراه سواها .. كان يريد لها وحدها
ويجب أن يلقاها وجها لوجه .. وكان مخبئا شيئا ما في « عبه » .
ودلف إلى الحجرة الأخيرة حين رأى أمه وخالته تجلسان في حجرة
المدخل ، وهناك ألقاها نائمة .

وقف الغلام مشدوها كأنما نسي نفسه ، أو فقد ذاكرته بشكل مفاجيء .
خيل إليه أن النائمة ليست (سعاد) . كانت تبدو أكثر طولا وأكبر سنا وأشد
أنوثة كأنها فتاة وهو غلام .. ذراعها مثنية إلى جنبها ، ورأسها معتدل على
الوسادة وكان على ثغرها بسمة ، وساقاها عاريتان حتى ما بعد الركبتين ،
وجو المكان .. كأنما يرفرف فيه حلم جميل ..

وحاول أن يرجع من حيث أتى وأن يقفل عليها الباب من جديد ، لكنه
أذعن للفكرة التي ملكته حين أحس كأنها هم أن تستيقظ .

وتقدم إليها . وأخرج الوديعة التي وضعها في « عبه » وركع إلى جوار
السرير بجانب وسادتها .. وأخذ يمس في أذنها بصوت عذب بسيط برىء :
— سعاد .. سعاد .. قومي .. أحضرتها لك .. ها هي ذى . وخذوا

ربكم .. وخذوا ربكم ..

ثم وضع منقار الإمامة بين شفطي النائمة .. فاستيقظت من النوم ..

قال لها وهي تفرك عينيها بعد أن نهضت جالسة في الفراش :

(أشياء للذكرى)

— لا تدرين أى عناء لقيته فى سبيل صيدها . كنا خمسة .. خمسة أولاد ،
لم تسعفنا (النبلة) فتسلقنا الشجرة وأمسكنا بالعش ..
كان كأنه يقدم لها تاجا .

وأخذنا يقبلان اليمامة ، وهما يجريان فى حذر فى آخر الدار ثم .. أعطته سعاد
فمها فقبلها . ولم يكونا يدريان ما طعم ذلك !
على أن الأختين قد انتهتا فيما بعد إلى أن اللعب بينهما قد جاوز حده
فوضعاها تحت عين المراقبة ..

ولم يكف القدر عن هنائهما بعد ذلك فأخذ يقص من أطرافه قطعة بعد
قطعة . حضر زوج الخالة ذات مساء وأعلن فى تدمير رجالي متعجب قادر أنه لم
يعد مستطيعا المعيشة هناك . إن الأمور قد هدأت نوعا . وكثير من السيدات
سافرن مع أزواجهن .

ثم سأل فى غضب :

— هبوا أننى مت وحدى وبقيتم أحياء ؟ فهل تعتقدون أنه ليس فى الأمر
إشكال ؟

وكان السؤال محرجا أسيفا جعل كلا من الحاضرين يؤمنون على وجهة نظر
الزوج ؛ فقررت الأسرة السفر صباح اليوم التالى ..
وحين كانت الأسرة مشغولة بإعداد أمتعة المسافرين ، كان الصبيان
منزويين بغير تدبير فى أحد أركان الدار يريدان أن يقولا كلمة وداع تناسب
ما يخالط القلوب الصغيرة .. قال الغلام :

— سعاد .. سأقول لأمى .. عندما أكبر ستجعلنا تتزوج ..

ونظر إليها وكان على وشك أن يبكى ، أو أن يمد إليها يدا ، لكن صوت
الخالة كان قد ارتفع يسأل : أين سعاد ؟ ألم يرها أحد يا أولاد ؟



... سعاد .. سأقول لأمي .. عندما أكبر ستجعلنا نتزوج ..

ولم تلبث الأسرة أن رحلت إلى الإسكندرية .
منذ ذلك التاريخ والغلام مهتم بأخبار الغارات .
إن سأل عنها أباه قال له : « مالك ناعى هم الدنيا ، ربنا ينصر هتلىر
عليهم » .

وإن سأل عنها أمه دعت لأختها بالسلامة ونهرته قائلة « قال الله ولا
فالك » .

وإن سأل عنها الطحان السمين ذا الوجه الملطخ بالشحم واللحم
والدقيق ، سخر منه ونحار كما يحور الثور قائلا : « اسألنى عن حالى .. يحرب
بيت الاتنين » .

واليوم قد جاءهم خطاب يطمئنهم عن الأحوال : والغارات هدأت نسبيا
ولو أن سكان المدينة يقضون معظم الليل فى الخفاء : « والله معنا ، نحن لا ناقة
لنا فيها ولا جمل » . كما قال زوج الخالة .

غير أنهم تبينوا أن الخطاب قد كتب من عشرة أيام .. تعثر فى البريد وفى
الجو المكهرب .. عشرة أيام ؟! إنه فى ساعات فقط يحيق الخطر بالناس
هناك !

وكان الليل قد دخل فخرج والد الغلام لبعض شأنه ، وجلس هو مع أمه
وفى قلبه هزة من ذكرى سعاد .. قال لها :

— عندما أكبر يا أمه .. طبعا سأتزوج ..

فردت قائلة وهى تخفى ضحكتها :

— طبعا ..

— ممن ؟

— من التى سيكون لك نصيب فيها .

ونظر في وجهها فلم يجد ما يشجع على استمرار الحديث ، فقام إلى القفص الصغير الذى اشتراه خاصة لزوج من اليمام صاده اقتناه من أجل سعاد حتى تعود .. حتى إذا ما اشتدت الفارات وجاءت إلى القرية كان أنيسها هنا ، وعند رجوعها إلى المدينة تأخذه معها ، ليقول لها هناك كل صباح : وحدوا ربكم .. وحدوا ربكم .. وسمع محرك سيارة .. ونخفت الأم تستطلع الخبر ، وخالطت الفرحة نبرتها حين رأت أختها تنزل ، وأحس الغلام بما حدث فهبط السلم وثبا وقلبه يكاد يشب أمامه .

وعندما دخل المسافرون إلى النور ، وبدت على وجوههم أشياء غريبة .. إنهم غير كاملى العدد .. تنقصهم واحدة ..

وحين سألت الخالة :

— وأين سعاد ؟

وبكى الأب وبكت الأم .

فقدوها في إحدى الليالي وهم في الطريق إلى الخبأ ..

أما الغلام فإنه لم يبك .

كان في ذهنه صورة ضخمة عن أهوال الحرب . صورة الجسم الذى ظل ماشيا بعد أن خطفت الشظية رأسه .. وتخيل أنه لسعاد .. قصد إلى السطح وظل يصرخ وكفاه موضوعتان على عينيه . وكان القمر مريقا نوره على سطوح الدور .. على الحطب الأبيض والمباني السمراء .. وكان أيضا يضيء الجو لقنابل مختلفة الجنسية تتساقط في نوره البنفسجى على السكان الآمنين . واندفع الغلام نحو القفص حيث كان زوج اليمام راقدًا في أسره اليائس . وفتح بابه وصرخ فيه :

— طيروا .. طيروا .. وحدوا ربكم .. وحدوا ربكم ..

فرقرقت تحت الأشعة البنفسجية وساء الصيف أربعة أجنحة .

الوسام

كانت المدرسة بعيدة عن القرية بما يقرب من ثلاثة كيلومترات. ولم يكن في قريتنا تلاميذ كثيرون .. كنا نعد على أصابع اليد .. ابن العمدة وابن شيخ البلد ، وأنا وأخى ، وتلميذ خامس لا أكاد أذكر من هو .

والطريق أيام الربيع والخريف كان معتما جدا ، خصوصا أثناء العودة ، فقد كنا نطلق العنان للهو الصبيان ونحن عائدون . أما في فصل الشتاء فقد كان الذهاب إلى المدرسة صباح كل يوم عملا لا يخلو مما يشغل البال .

وكان أبى صاحب دكان البقالة الأساسي في القرية الصغيرة ، ولذلك استطاع أن يعث بي أنا وأخى إلى المدرسة . غير أن ابن العمدة كان يركب حمارا فارها في الأيام الشتوية وقد يركب خلفه ابن شيخ البلد ، وكان هذا يستلزم أن يتبعهما خادم ليعود بالحمار لأن القرية الكبيرة التي تمتعت بالمدرسة الأولية لم يكن فيها « خان » تنزل فيه الحمير .

ولذلك تبدو مشكلتى أنا وأخى صعبة معقدة . فقد كان انتقالنا يستلزم ركوبة وتابعا . وكثيرا ما كان خادم ابن العمدة يعود بقافلة من الحمير الخالية من الركاب إذا تصادف وذهبنا جميعا إلى المدرسة ، لكنه يحدث أن يقع بينى وبينه خلاف فيتعذر حل المشكلة ، وفي الفترة الأخيرة تزحلق بنا الحمار فانتزع مفصل رسغه فنزلت عنه أنا وأخى في اليوم الموحد وقفلنا راجعين . هو أمامنا يعرج ونحن وراءه نخوض الطين ، والفلاحون الذين يلقوننا في الطريق يتوجون المنظر بضحكة غليظة .

أنا وأخى توأمان ولدنا في بطن واحد ، ويكاد الناظر إلينا لا يفرق بيننا إلا

بعد تدقيق . غير أن طباعنا كانت مختلفة . وكانت أمي تعلق على ذلك في كل مناسبة منددة بخرافة الوراثة .

كنت أنا وهو ، قد خلقنا في ظرف واحد وتحت ظل جو واحد ولكننا بعد الميلاد تباينت ميولنا ..

ففي الليلة السابقة لهذا اليوم الذي سأحدثك عنه ، خرج أخى إلى الدكان ليحضر بكرة من الخيط الأبيض لتلحق بها أمي بعض ملابسنا . وعاد يوحوح وكفه مكورة على بكرة الخيط ، وأمسك كف أمه ووضعها على رأسه :

— آه .. يا أمه .. الدنيا تمطر في الخارج .. والسماء فيها سحب كثير .. وضحكت أنا في حذر ، وكنت بجانب كرسي عليه مصباح ريفي أؤدى بعض واجباتي المدرسية . وفهمت أمي ما يعنيه هذا الصغير من الحكاية ، إنه يشير بأن الأرض ستصبح موحلة وبأننا لن نذهب غدا إلى المدرسة ، ويمهد الطريق للاعتذار عند الصباح .

ونمنا وأصبحنا ..

ولما خرجت إلى ساحة الدار وألقيت نظرة على الجزء العادى من السقف وجدت أرضه مبلولة ، ورفعت بصري إلى فوق فإذا الحطب مغسول وبعض عيدانه يقطر منه الماء . لكن السماء كانت مصحية ليس فيها ما ينذر بخطر جديد .

ودخلت فأفطرت . وكان الوجوم باديا على أخى وهو يأكل . في يده فطيرة من دقيق الذرة يبلع فتاتها بالشاي ، وأمي على معرفة بما في نفسينا كأننا وعاءان من الزجاج نشف عما بداخلنا .

ولبسنا أحذيتنا ، وهي أهم ما يلبس في الريف . ولففنا رأسينا بالتلافيع ، ثم وقفنا تلتفت .

كان الحمار لا يزال مصابها لا يستطيع أن يسير في الأوحال . وأكدت لنا
أمنا أن عوائق الطريق ليست كثيرة ، وأنها رأت كثيرا من الناس يخرجون
بالمواشي إلى الحقول ، وبعض النساء يعدن بجرار الماء مملوءة من التربة .

لما رأت في عيني إخلاصا حقيقيا في الذهاب إلى المدرسة لم تعر أخى
المطرق إلى الأرض أى اهتمام ، ووجهت حديثها إلى :

— أنا متأكدة أنكما ستصلان بسهولة .. وعلى كل حال إذا رأيتما أن
عوائق الطريق أكبر مما تتصور .. فـ ..ارجعا ..

وهزت كتفها وبدت نظرتها لا تؤيد رضاها . وخرجت أنا وأخى إلى
عرض الطريق .

كانت عادتنا أن نسير منحدرين ، وغالبا ما كان كل منا يتأبط ذراع
الآخر . لكن أخى مشى في هذا اليوم متأخرا عنى بضعة أمتار ، وكلما حدثته
على الإسراع وقف وبكى ثم مسح دمه بكفه أو بهداب التلغيفة . كان يريد
أن يضيع الوقت و كنت أعلم ذلك .

وكان الطريق لزجا . لم يكن كثير الأوحال لكنه كان مدعاة للزلل ،
وسرت .: وهو من خلفى كل منا يتأبط أدواته ويشمر أذبال جلجابه . ولما
انصفت المسافة بدت لعيني عقبة حقيقية كانت كفيلا بأن ترد أكثر التلاميذ
اجتهادا .

هي بقعة من الطريق منخفضة المستوى العام ، كنا نلاحظ أن مياه التربة
تغمرها في كل مناسبة ، على رأس حقل لفلح مهمل ، حول الغرق المستمر
جزءا كثيرا من حقله إلى أرض سبخة لا تثبت إلا النزر اليسير .

وكانت هذه البقعة أشبه بمستنقع من الطين ، خالية من الشجر
والمسارب ، والحقل من تحتها مزروع بالقمح الذى روى حديثا .

وبدت أرض الطريق هناك سوداء كالحة مكسوة بحراشيف كأنها مصباح
ينذر بالشر المستطير كل من يوقظه من النوم .
وانفجرت أسارير أخي .. كف عن البكاء ووقف مبتسما ، ووقفت أنا
أنقل نظراتي منه إلى الأرض ومن الأرض إليه كأنني أسأله ماذا أفعل . ومرت
فترة صمت تجمع فيها شيء من السحاب نحو الشمال، وأخذت حقول القمح
تميد مع هواء الصباح كأنها بلجة خضراء .. ووحوح أخي في مبالغة ونظر نحو
القرية وقال :

— لنرجع . إننا سنغرق في الطين .. وهناك سحاب ممطر . وأشار بيده
نحو الشمال .

ودون أن أنظر إليه خلعت حذائي ووضعته في حجري مع بقية الأدوات
وأخذت أخوض الطين ، حتى وصلت إلى منتصف العقبة فانفرست وصرت
أترنخ ، عندئذ سمعت ضحكته فشجعني على مواصلة المشي حتى خرجت
تماما ، ولما أصبحت الأحوال تفصل كلا منا عن الآخر رأيت يعلو بكل ما
يطيق راجعا إلى القرية .



كان السحاب يجتمع ، والطريق خاليا من الناس .. وأحسست يومئذ
أنني شيء ضائع بين الحقول ، ولم أعاود لبس حذائي ... أخذت أجرى حافيا
لأصل قبل دقة الجرس ، وأمدتني الحركة بدفء غير عادي فأحسست
بلذة ، خصوصا لأنني سأعمل شيئا خارقا لم يقدر عليه تلاميذ بلدنا ،
فأحظي بشرف ذهابي دونهم إلى المدرسة في ذلك اليوم الممطر .
وأخذت مبانى القرية تلوح لعيني شيئا فشيئا . وكانت الخيطان المطلية

بالجير تبدو مخططة بغير نظام بخطوط من الطين الذائب كأنها دموع الشمع ،
ومبنى المدرسة يبدو زاهيا أكثر من كل دار حوله بحيث تعرفها العين الرمداء .
ولم أر على الطريق تلاميذ في سبيلهم إلى الذهاب ، فاستتبعت أن الوقت
متأخر ، لكنني تذكرت أنني لم أسمع دقة جرس ، لا شك أن الوقت لم يفت
بعد لأن الحقول التي عبرتها كانت ساكنة تكاد تسمع فيها النبات وهو
يتنفس ، ولم أسمع الجرس وهو يدق .

وعلى الرغم من كل شيء جددت في السير ، واعترضتني بحيرة من الماء
صنعها المطر فخضتها بلا مبالاة ، في الوقت الذي بدأ الرذاذ فيه يسقط على
وجهي .

وهنا دق الجرس .

ومن عادتنا في الأيام المطيرة أن ندخل إلى الفصول بلا طابور ، لأن أرض
الحوش تكون موحلة في الغالب .

وأخذت أجرى وكأنا بناء المدرسة يجرى نحو الجنوب خطوة كلما
خطوت إليه من الشمال خطوة ، كأن المسافة محفوظة لا تتغير .

ودخلت من الباب وأنا ألث ، وسمعت صوت المدرسين يستفتح العمل
ولم يكن في الفصول ضجيج مما يدل على أن العمل قد استتب ، وقابلني أول
من قابلني فراش المدرسة فخطف التلويح من على رأسي حتى لا أدخل بها .
وولجت الفصل بمنظر مضحك ، حذاء موحل وملابس ملوثة وأنفاس لا هثة
ووجه خائف وكحة تقطع لثان أنفاسي .

ولما استأذنت على الباب بالطريقة المعروفة وقع ما لم يكن في حسابي ، فقد
كنت متخيلا أن المدرس سيلقاني بالتكريم لأنني فعلت في هذا اليوم العباس ما
لم يفعله أحد من تلاميذ قريتنا ، لكن المدرس قابلني بوجه مثل وجه السماء

في ذلك اليوم ومزاج من بات طوال الليل يعاني آلام أضراسه. وحياتي بضربة
مسطرة على كتفي وضربة أخرى على مقعدتي وثالثة على فخذي من الخلف .
فلما جلست على درجتي انخرطت في بكاء لم يستطع أحد سده ، كنت في
الحقيقة ألوم نفسي وأحسد الكسالي والكذابين الذين لم يلقوا عناء ،
ولا جحودا ، وأبكي بحرقه لحيية ظني وضياح مجهودي .

وصالحتي المدرس بعطف نوعي فلم أكف عن البكاء، وعندئذ بادر إلى
اتهامي بأنني أقتلع عليه الطريق بما أفعل لكي أحول بينه وبين عقابي إذا لم أكن
حللت واجب الحساب ، وأخذ الكراسة وحملق فيها ، وعندئذ ابتسم
ووضعها أمامي على الدرج وعاد يربت على ، فقد كانت المسائل كلها
محلولة .

ومسحت دموعي بكمي وعاد إلى الهدوء . سكنت نفسي بعد أن نالت
مكافأة على عملها الآخر ، على حل الواجبات الحسابية ، مع أنني لم ألق فيها
من المشقة بعض ما لقيته في قطع الطريق إلى المدرسة ، وقد نلت عليه عقابا .

سنوات عشناها

لم تنم المدينة تلك الليلة ..

كل فرد فيها بات يفحص ذكرياته ويستعيد حادثة أو عدة حوادث يشارك في أقرب فرد إليه في بعض ما يفكر فيه . وقد يقوم إلى النافذة فيلقى نظرة على البحر . وارتفع القمر الوليد على الأفق الغربى بعد غياب الشمس وابتسم للمدينة ساعتين أو أكثر ثم هبط . وظل الناس ساهرين .

كل منهم كان يريد أن يخرج إلى الشارع بعد مشرق الشمس مباشرة ليرى ماذا عسى أن يكون شكل هذا النهار . هل سيكون يوماً كبقية الأيام ترتفع شمس على الأفق في سكون طبيعي بلا جلبة ولا ضوضاء أم أن له طريقة أخرى ؟ مما لا شك فيه أن الكواكب ستؤدى عملها بطريقتها التي لا تتغير . لكن الناس هم الذين تغيروا .

وكان الحاج أمين راقداً في فراشه في المسكن الصغير من الحى الشعبى في المدينة تجلس عند قدميه على نفس الفراش زوجته الحاجة « نفيسة » وقد ثقل رأسها تحت ضغط الأفكار . لعل الرجل في ساعاته الأخيرة . إنه يعاني أمراض الشيخوخة منذ ثلاثة أعوام . تحملها ماشياً ثم تحملها راقداً . ثم ناء بالحمل فلم يعد يحتملها حتى وهو راقداً ..

وارتاعت الزوجة لفكرة أن زوجها سيرحل ويسبقها إلى العالم الثانى فتظل هى وحيدة . حقيقة أن لها ولدين أحدهما فى القاهرة وهو الكبير ، لكنه عاق لا يسأل ، وها هو ذا أبوه يحتضر لكنه لم يأت بعد ، والثانى يقيم معهم فى المدينة فى مسكن قريب فى آخر الحارة . أما بنتها فقد أدركها الترميل منذ أربع

سنوات تماما .

وأطرقت الزوجة ومدت يدها تتحسس أقدام الحاج أمين تحت الغطاء الخفيف في الجو الحار ، وأخذت تدلك القدم لتعيد شيئا من النشاط إلى الجسم المتعب .

وارتفعت في هذه الحالة أصوات ضجيج عال تشوبه ضحكات من المواطنين الذين لم يناموا ، فاستفاق الحاج أمين قليلا وأدار رأسه نحو الشباك المفتوح الذي يدخل عليه نسيم البحر فلا يجد ما يحركه من الستائر ، ثم نظر إلى زوجته وعلى شفثيه ظل ابتسامة قائلا :

... آ.. آ.. آظن الناس لن يناموا هذه الليلة !!

لكنها ردت بشفقة وقلق :

... وأنت يا حاج أمين .. هل نمت ؟

وأغمض عينيه كأنه نائم : كان في الحقيقة يستعيد ذكرياته كما يفعل كل فرد في هذه المدينة .. يوم خرج بعد مطلع الشمس معتمدا على الله ليفتح دكانه ، وودعته على السلم زوجته «نفيسة» وابنته المتزوجة التي جاءت إليه بعد مقتل زوجها . كانت في ثياب الحداد واقفة على رأس السلم وعلى كتفها رضية وفي عينها دموع ودعت لأبيها بالسلامة فهو يدور مع منحني السلم في ذلك الوقت الذي عادت فيه أمها ودخلت إلى الصلاة .

إن الحاج أمين لم يكن ذاهبا إلا .. ليفتح دكان البقالة .. لكن الواقع الغريب أنه لم يكن هناك فرق كبير بين عمله هذا وعمل الذهاب إلى ميدان القتال ، وهو بعد ذلك رجل في الخامسة والستين ضعيف مكدود . تهالك كل شيء فيه بفعل الزمن إلا قلبه ، فإنه كان قويا من نفحة الإيمان التي غمرته . وفي « بور سعيد » يومئذ وقعت أعمال كثيرة . بث المصريون الذين (أشياء للذكرى)

يقاتلون الإنجليز في قلوب أعدائهم رعبا غريبا . جعلهم طول الليل يطلقون
رصاصهم على الأشباح في الوقت الذي كان الفدائيون فيه يتسللون إلى
معسكراتهم فيصنعون العجائب . وتهيئ المدينة الصغيرة على انفجار كبير .
وبعد أن يخيم الصمت ويلتئم صدع الظلام الذي شقه الحريق ، يعود
رصاصهم المدعور يدوى في ظلمة الليل .. آحادا وجماعات .
وتوقفت أفكار الحاج أمين لأن ضجيج الجمهور الثمل بالفرحة عاد
فارتفع ، وكأنما نسي الحاج أمين الزمان والمكان فسأل زوجته « نفيسة »
التي كانت تدلك له قدميه :
— هيه .. وماذا أيضا ؟

— الناس .. نفس الناس الذين تحدثت عنهم ، هل نمت يا حاج أمين ؟
وابتسم لها وسكت . ودخل عالمه من جديد . وجاس خلاله في مآهات
وظلمات حتى عاد تفكيره إلى منطقة النور مرة أخرى .
وكان الإنجليز في ذلك الوقت من سنة ١٩٥٢ مؤمنين أنهم يقاتلون
« ظواهر الطبيعة » .. لقد قاتلوا المصريين قبل ذلك فلم يروا فيهم هذه القوة .
وحجز التجار عنهم المؤونة وترك العمال لهم مصانعهم ، وكلما استبد بهم
الجوع نزلوا إلى المدينة في هيئة عصابات مسلحة تسطو على المتاجر المفتوحة
فتنهبا تحت السلاح .

وفي اليوم الذي نزل فيه الحاج أمين ليفتح دكان البقالة ، وابنته تودعه على
السلم وتذكر مقتل زوجها في أحد أعمال الفدائيين — التقى الحاج أمين
بالقدر مع إحدى العصابات المسلحة .

تزاحم الأهلون على باب الدكان يشتررون مطالب يومهم في أقصر مدة قبل
أن يقفل دكانه ويعود بسلام . لكن سيارة « جيب » وقفت على مقربة منهم



وتوقفت أفكار الحاج أمين لأن ضجيج الجمهور الشمل بالفرحة عاد فارتفع

وهبط منها ثلاثة من الجنود . وزحفوا بانتظام عسكري رائع إلى دكان بقالة الحاج أمين ، ولم يتفرق الناس بل ظلوا واقفين ، ونظر الشيخ المسن إلى علب السردين والمرنى والتونة وهي تعبأ في الأكياس وظلله الوجوم فترة وجيزة ، والمواطنين العزل ليس في أيديهم ما يدفعون به « الحديد » اللهم إلا نظرات كانوا يتبادلونها كلها استفسار واستصغار .

ووقف التاجر مذعورا في وسط الدكان وفي يده سكينه الحلاوة ، وقلب نصلها ونظر فيه ووارها بين ثيابه ثم فكر ..

هل يطعن واحدا منهم ١٩

وأناه الجواب الصريح الواضح بنفس السرعة التي تنهب بها الأشياء من دكانه ، وهو أن ألف رصاصة ستمزق أحشاء كل الواقفين وهو في أولهم .. فوضع السكين على أقرب رف وانخرط يضحك .. وكان ضحكا غريبا اغرورقت له عيناه .. وأجابه بعض الأهلين بالضحك وأجابه بعضهم بالبكاء . ولما استمر في ضحكته وتقليب كفيه فهم الناهبون مغزى ضحكته .. إنه ضحك مستعري ما في ذلك شك .. أليست هذه العلب والسلع والسجاير والأرغفة مال أسرة — قد تكون كبيرة — تأكل من ربحه ١٩

فأخذتهم الشفقة لأنه عجوز .. لقد تجاوز حدود الأدب حقيقة بضحكاته تلك ولكن لا داعى لقتله .. إنه قتيل بلا رصاص فلا داعى للإجهاز عليه . وخفت العقوبة إلى ضربه .. قنبلة يدوية هي عبارة عن علبة من علب المرنى قذفت بها يد أحد الجنود في وجه الحاج أمين فاستقرت على عينه اليمنى ..

وعلا ضجيج الناس في الشارع ، وحمل الليل صوت أحد المواطنين غناء من تأليفه وتلحينه : « مع السلامة يا واكلنى .. مع السلامة يا شاربنى .. مع

السلامة .. ألف سلامة 11 .

ومرة ثالثة سأل الحاج أمين :

— آه .. ما هذا الضجيج ؟ إن الناس لن يناموا هذه الليلة .

فأجابت زوجته في وله :

— وأنت ؟! .. هل نمت ؟!

وعادت تدلك قدميه في حركة آلية غير واعية ولا مرتبة .. وابتسم الحاج

أمين ووضع يده على عينه اليمنى . نعم عينه اليمنى ..

ثم نظر إلى زوجته بعينه اليسرى ثم عاد إلى أحلامه . ودخل في المتاهات

والظلمات ثم ما لبث تيار أفكاره أن تدفق في النور :

آه .. ومنذ ذلك التاريخ وهو بعين واحدة ، لقد أخذت المقاومة إحدى

عينيه ، وأخذت زوج ابنته ، وأخذت معظم رأس ماله .

وأخذت الأيام تمر وهو راقد تحت العلاج لا يدري ماذا صنع الله به ، لكن

عينه التي بقيت له رأت كفاحا أقوى من الذي فقد فيه عينه ، فحققت له أمنية

كان يدعو بها عقب كل صلاة هي أن يرى هؤلاء الطغاة وهم يرحلون عن

أرض وطنه . بعينه الواحدة 11 ..

وبكى الحاج أمين يومئذ وهو جالس على حصيرة الصلاة .. ونزلت

الدموع من عينه اليسرى 11 وتصور أنه سيرى خوذات وجنودا يتجهون إلى

البحر .. ظهورهم إلى مصر والشعب من ورائهم فرحان يهلل ، فقبال الرجل

في نفسه :

— آه .. لو رأيت هذه بعيني التي بقيت لي لاستطعت بعد ذلك أن أرى

بها الشاطيء الثاني وأنا واقف في المينا .

وتقدمت خطى الليل وكانت الغيوبة تتأقل على الحاج أمين شيئا فشيئا، وامرأته

تدلك رجلية وهو لا يحس بكفها . وأخيرا دخل ابنه عائدا من القاهرة في
القطار الأخير .. وتنبه له أبوه وقال له :
— هل جئت يا بنى ١٢ .. حمدا لله على السلامة .. هل أنت الذى كنت
تغنى ؟

كان الصوت ينبعث منذ قليل فى أذنيه بحيث لا يعرف مصدره . « مع
السلامة يا واكلىنى .. مع السلامة يا شاربنى .. مع السلامة .. ألف سلامة »
لكنها أومأت له !!

وعادت اليقظة فدهت فى أوصال الحاج أمين إلى فترة وجيزة . قال وهو
بكامل وعيه وأعز قواه :

— كم الساعة الآن ؟ آه .. لا يزال الوقت مبكرا .. إذا طلع النهار ..
فإنى .. سأرى رحيل الإنجليز بعينى الواحدة .. هذه .. هذه !! « وأشار
إليها بسبابته كأنما ليؤكد شيئا مشكوكا فيه » .
ثم سأل :

— وأين سليمان ابنى ؟

— آت حالا .

ولم يشاعوا أن يقولوا له إن زوجته فى عسر ، لأنها تعاني آلام المخاض ..
إنها تلد .

ودخل الحاج أمين فى عالمه الغامض مرة أخرى . وثقل رأس زوجته جندا
وأطرقت جندا وهي تدلك له قدميه ، ثم كفت فجأة ، ونظر الرجل وطلب
منهم أن يفتحوا الشباك بإشارة من يده .. والشباك مفتوح .

وأخيرا انصب الغناء فى أذنه « مع السلامة .. مع السلامة » .
وكان الصوت يعد ، ويعد ، ويعد .. حتى صار صدى ، ثم انقطع

الصدى .

وأشرقت شمس اليوم التالى فارتفع الضجيج فى الشوارع . كانت مدينة « بور سعيد » هى الثغر الوحيد الذى لقى هذا الشرف . جلا عنه آخر جندى أجنبى فأعلنت الحكومة نظافة الأرض ..

لكن الحاج أمين لم يشهد هذا الصباح وإن شم نسيم الحرية قبل أن يموت ، وكان جميلا أن يراه كما تمنى .. لكن المهم أن مصر قد رأته . وهذا هو القانون !!

وفى ذلك اليوم فتح اثنان من موظفى الدولة سجلين ، كل واحد منهما فتح سجلا وكتب ما يلى :

الاسم : أمين العبد .

تاريخ الوفاة : ١٣ يونية سنة ١٩٥٦ .

وكتب الآخر :

اسم المولود : منصور سليمان أمين ..

تاريخ الميلاد : ١٣ يونية سنة ١٩٥٦ .

وابتسم الموظف بعد أن فرغ من الكتابة ونظر إلى شجرة خضراء وقال :

« ولد مع مولد الحرية .. هنيئاً له .. إنه من جيل محظوظ » .

ولو كان هذان الموظفان جالسين على مكتبين متجاورين لأدركا فوراً أن

هذين الحادئين وقعا لأسرة واحدة ، تسكن حارة واحدة . وأن الدمع

والابتسامة كانا من حظها ، وأنها شهدت آخر الليل وأول النهار ، وأن هذا

الميلاد لم يكن ميلاد طفل واحد ، لكنه ميلاد وطن .

رسالة الغمام

كان الصباح مشرق الشمس في ذلك اليوم من فصل الشتاء ، تسلل منها شعاع حذر فاخترق شيش النافذة بطريقة ما حيث عبر إلى فراش بكير أفندى الذى كان لا يزال راقدا حتى الساعة التاسعة من صباح اليوم .

لماذا يستعجل الخروج ؟ لا شيء يدعو مطلقا إلى العجلة : ومنذ أيام الصبا الأول كان هذا طبع « بكير » .. « فى التأنى السلامة ولو فاتك القطار » .. هكذا كان دائما على الرغم من أن رئيسه فى المصلحة عاقبه بالخصم مرة بعد مرة ، وكان يلقي هذه العقوبة ضاحكا ويقول : « هذا خير من حوادث السرعة » .

وفى الصيف الماضى أحيل بكير أفندى إلى المعاش . فخرج قوى البنية مشرق الوجه كابسا طربوشه كالعادة على رأسه . ومنذ تجاوزه عهد العمل وهو يمشى محملا فى الأرض .. ناظرا تحت قدميه كأنما يخشى أن تزل قدمه . يتناول طعام فطوره فى البيت — وحيدا — بيد الخادمة بعد يقظته من النوم . إنه لا يزال ساكنا مع ولديه العازبين الشابين بعد أن تفرق المتزوجون .. وماتت زوجته . من أجل ذلك فإنه يغادر البيت بعد الفطور مباشرة . يخترق الطريق المألوف المشجر إلى القهوة الوحيدة فى الشارع الرئيسى من الضاحية . فى جيبه الجانبي علبة التبغ وجريدة الصباح والعصا المعوجة تتأرجح كالبنسول فى ذراعه اليمنى أو يدق بها على الأرض .. كاد الرجل يحفظ منحرجات الطريق وترتيب بيوته وألوان حوائطها وأبوابها فى نصف سنة اجتاز فيها هذا الطريق .

وكان الأسبوع الماضى كثير المطر شديد البرد فاحتبس فى البيت لم يفارقه . وأحس — وكأنما هذا لأول مرة — بأن الدنيا فراغ ، وأن وحشتها أشد مما تحتمله نفسه .. حتى تجرأ على غير عادته فى التفكير وسأل نفسه عن فائدة الشيخوخة ؟؟ واتسعت ابتسامة غير ذكية فى وجهه الطويل وقلب كفيه ونظر إلى عروقهما البارزة فى ظهرهما .. ثم تذكر الماضى .. أيام كانت أم حسنى زوجته تضغط عليهما بكفها معا لتسمع منه شبه آهة ، وفى ليالى الشتاء الغابرة أيام الصبا والعز والاجتماع وابتسامة الزمن .. حين كانا يجلسان والمدفأة بينهما ، وعليها أبو الفرو وأربع أكف مبسوطة على ارتفاع يسير منها .. كف من يديه ثم بعدها كف من يديها ثم .. كف ثم كف .. آه .. على الترتيب .

وتنهذ وقال « آه .. على الترتيب » ثم نظر فى الساعة فألفاها التاسعة . ونظر إلى الزجاج فرآه مضيئا بأشعة الشمس فتحرك فى سريره وقلبه ملىء بالحسرة .

لأول مرة — وبعنف — يذكر ما فات . إن كتاب الماضى يفتح فى نفوسنا فجأة بحركة لا ندرىها ، وعندما نقرأ صفحاته نرجع فى أعمارنا بظهورنا .. فى رحلة لا يطول أمدها لكنها تؤكد حتى للذين يتجاوزون المائة أن حلقات العمر شديدة الاتصال بعضها ببعض .

وتنهذ بعد الفطور . وتنهذ وهو يهبط السلم .. وتنهذ وهو يأخذ الطريق من أوله لكى يصل إلى القهوة .

كانت الضاحية نظيفة ناصعة كأنها أحد طيور الماء خارجا من فوره من البحيرة .. والشمس تفرش الأرض وتتخلل الشجر .. وحتى بعض العصافير كان يزقزق لكن بكر أفندى كان يتنهذ .. وحيدا ! . وفجأة وقف

مهمرا في مكانه . ونظر في كل اتجاه ليرى هل يراه أحد . ثم انحنى على الأرض والتقط المظروف الصغير الأزرق النظيف الصافي ووضع في جيبه ثم سار في طريقه ، يخمن ماذا فيه ؟

وفي القهوة طلب فنجالا من الشاي ، وأخرج الرسالة من جيبه وعاد يفحصها من جديد . لم يكن على ظرفها عنوان لكن بداخلها ورقة سميكة من المحتمل أن تكون خطابين . ومن المحال أن تكف نفس أى إنسان عن التطلع إلى الداخل في مثل هذا الموقف . نفذ الغلاف برفق شديد حيث وجد رسالة من نفس اللون في ورقتين اثنتين فاحت منهما رائحة الحب قبل أن يقرأ منهما حرفا ..

لماذا دق قلب بكير أفندى بعنف عندما وقع بصره على السطر الأول من الرسالة وقرأ : « حبيبتى هناء .. » ؟

إن كلمات الحب منذ قديم تثير فيه إحساسا داخليا يعجز دائما أن يعبر عنه بالكلام . ولذلك كان يعجب من براعة المؤلفين الذين ينسجون حوار الحب بين بطلين على الشاشة ، ومنذ قديم أيضا وهو يعبر عن إحساسه بالحب بحركة من الحركات .. وكم تهرت أم حسنى .. رحمها الله — على أنه يضربها بكفه بين كتفها إذا ما أعجبه منها شيء كوسيلة للتعبير عن الإعجاب . ولذلك فإنه بعد أن قرأ كلمة الحب في هذه الرسالة الموجهة إلى مجهولة وضع ساقا على ساق وأخذ يهز رجله في الفضاء كأنه يحرك مدوس ماكينه :

« حبيبتى هناء . هذه خامس صورة من الخطاب بعد أن مزقته أربع مرات . إننى أنتهز فرصة هجوع أبى وأمى فألقى كتيبى وأشرع في الكتابة إليك . أنا لا أفهم شيئا مما أقرأ ومن المحال أن أفهم . أن الكوب الملائن لا يملا إلا إذا أفرغ أولا ، وأنت يا حبيبتى قد ملأت فراغى فألهيتنى عن كل شيء . لا أستطيع أن

أتسلق بعد اليوم سور حديقتكم من الخلف بعد أن أطلقتكم في الفيلا كلبا جديدا غير الذى سرق . هل تعرفين من الذى سرقه ١٩ خمنى .

إن بوابكم الأعور رجل غليظ القلب ، إنه يذكرنى بالمداحين الغجر الذين يطوفون الريف فى مواسم الحصاد مع كل منهم حمار وخرج وطار . ماذا يعجب والدك فى هذه السحنة ؟ كيف يكون « رضوان الجنة » فى مثل هذه الجفاوة والدمامة والسفالة أيضا ؟ ليتنى أملك التصرف فى عينه الثانية .

إن خادمك بنت لطيفة . ليتكم تؤخرون زواجها حتى يقضى الله فى أمرنا بشيء .. هل تعرفين النخلة النامية على مقربة من نافذتك ؟ كم تخيلت أنتى أتسلقها لألقى نظرة على مفدعك من حيث لا تشعرين ، وعلى فكرة أنا أريد أن أنقطع عن الدراسة لأتخصص فى الموسيقى ، ولكن أبى يعارض جدا .

« بلى شوقى بكلمة تكتيبتها ما دمنا عاجزين عن اللقاء » .

الإمضاء « حلمى »

هذا ملخص الرسالة .

واستغرق بكير أفندى فى تفكير عميق . وللمرة الأولى منذ سنتين طلب « شيشة » . إنه يريد أن يتنفس بعمق وينفخ بشدة . والحوادث إذا انفصلت عن ذاتنا رأينا كل جوانبها وحكمنا عليها بحجور .

ولم يذكر بكير أفندى أنه وهو فى سن الشباب .. ومن الجائز أنه كان فى مثل عمر صاحب هذه الرسالة ، انزوى خلف باب البيت فى الدهليز تحت الظلام .. كان الليل تحريفا والساعة بعد العاشرة وكانت هناك قطبان تتشاجران على مقربة من بكير الشاب ، وعلا بينهما الشجار حتى بدد سكون الليل ، وفى هذه اللحظة دخل أحد السكان فخاف أن يدوس على إحدى القطبتين فزجرهما فلم تنزجرا . فأشعل عودا من الكبريت فوقع بصره على

قط آخر وقطة أخرى كانا عند قبوة السلم يمارسان عملية حب .
لم يستطع أن يتصور « هناك » هذه إلا في ملابس « سكينه » بنته المقيمة
في سعادة مع زوجها في طنطا . ولعل سكينه قد فعلت مثلما فعلت هناء —
الآن — إن ممارسة الحب على أشكال وألوان ، فمننا من يوقد من ناره شمعة
يمشى في ضوئها ، ومننا من يحرق أنامله بلمسته ، ومننا من يلقي بنفسه في
حريقه .. فهناك من يستضيئون ، وهناك من يحترقون ..

وعبرت كل هذه الخواطر على رأسه وهو ينفخ الدخان ويقلب الجمر على
الحجر ويدق بقدمه كأنه يدوس على فرملة .. وكان الدفء يملأ أرجاء
الضاحية من حوله والنهار كأنه تخلف عن فصل الربيع ..

وقام بكبر أفندي من مكانه فجأة .. وكس الطربوش وعلق العصا ونظر
إلى الأرض التي داسها ببطء شديد منذ درجت عليها قدماه ، وانسرب تحت
أشعة الشمس في الضاحية وهو يقول في نفسه:

« إن الشاب من سكان المنطقة ما في ذلك من شك .. ومن المحتمل أن
يكون الخطاب في أحد كتبه أو إحدى كراساته وسقط منها . ومن المحتمل أن
يكون مسكنه قريبا من مسكنها . أما البواب اللعين الذي عذب قلبه فإننى
سأعرفه من بين ألف رجل .. أعور وفي هيئة المداحين الذين يجولون الريف
في أيام الحصاد » .

ثم سأل نفسه : « لكن ما هذا الفضول ؟! أليس من الأفضل أن يمزق هذه
الرسالة ويسلم قصاصاتها للهواء ؟ » لكن .. إنه يملك وقتا .
وأخذ يضرب في الضاحية .

وعلى مقربة من نهاية شارع حيث تنفسح الأرض على هيئة ساحة رملية
كبيرة لمح الرجل المطلوب .



وعبرت كل هذه الخواطر على رأسه وهو ينفخ الدخان ويقطب
الجمر على الحجر ويبدق يقدمه كأنه يدوس على فرملة ..

ووقف برهة حيث ألقى نظرة وابتسم في نفسه حين رأى الوصف مطابقا تماما . لكن عينه السليمة كان فيها يقظة الصقر كأنما أراد الله أن يمنحه بواسطتها قوة العينين ، ومنها تنبثق شخصية فذة . صعيدية جبارة تجسم معنى كلمة « حارس » في جلاباب واسع الأكام ، طويل كأنه شبح ، خفيف الحركة كأنه ظل .

كان يكنس فضلات الحديقة بمكنسة طويلة اليد ، وعلى أحد جانبي الباب كان صندوق الخطابات يحمل البطاقة .. لم يستطع بكير أفندي أن يقرأها . وفي الداخل كان كلب ينبع وعلى مقربة من كشك البواب كانت خادمة تترقص في مشيتها في ذراعها سلة . ورأى الشيخ أشخاص الرواية كأنما ظهروا على مسرح .. لكن البطلة لم تظهر بعد . فسار بعيدا عن البيت ثم غاب قليلا وعاد .

وعلى مقربة من السور الخلفي رأى فتاة تطل .. كانت تتأمل الحديقة الخالية من الأزهار والنخلة القائمة على مقربة من شرفتها وعلى وجهها أحلام هذا العمر . فخمن أنها « هناء » . فنظر إليها وهز رأسه وتحسس الرسالة في جيبه الجانبي وكان قد وضعها في ظرف جديد وأعاد لصقها .

وابتعد قليلا ثم عاد . وكان الهواء قد بدأ ينشط .. والأوراق المغسولة تخشخش في ترف ، وبعض الأزهار الوحشية على نباتات الأسوار كانت تتساقط ، لم يكن عند باب الفيلا أحد . فتوقف وجاءه خاطر خبيث . لو أن الفتاة كانت خارجة من الباب لتقدم منها وسلمها الرسالة ! لكنه ضحك من نفسه . وعلى كل حال فإنها لم تخرج . إنها جميلة ما أروعها تحت جناح الظلام حين يحف الشجر من حولها ويتنفس النبات وهي بين ذراعيه ! .. ولكن آه .. ما أفظع هذا !؟ أليس من الجائز أن تشتعل النار في ملابس البريئة من حيث (أشياء للذكرى)

لا تدرى ، ويفر « حلمى » متوكلا على الله تاركا جمالها للأحزان ؟ آه ..
كل هذا جائز .. وابتعد قليلا ثم عاد .. فرأى الخادمة خارجة تترقص بأرداف
كبيرة وصدر مترهل . وتحسس الرسالة فى جيبه ونظر إلى وجه الخادمة ثم
كف فجأة وسار فى وجهة أخرى وابتعد قليلا ثم عاد .

كان الشارع ساكنا تماما .. وسحاب رمادى اللون بدأ يتولد عند الأفق
الشمالى الغربى .. وريح بليلة فيها نداوة الأمطار تملأ رائحتها أنوف المارة .
وباب الفيلا مقفل والبواب لا تراه العين .. والكلب لا أثر له .. والنوافذ
المطللة على ناحية الباب مقفلة كلها .. وهمس خفيف كأنه صفير يأتى من على
البعد يتصاعد من لفائف الشجر .. وتحرك بكبر أفندى: والرسالة فى يده ..
وتحرك .. وتقدم ، وتقدم حتى وضعها فى صندوق خطابات والد الفتاة
وانصرف فى هدوء المذهولين .. وفى منتصف الليل استيقظ على صوت
بكاء .. بكاء لفتاة فى السادسة عشرة تنتحب من تأنيب والديها .. كان
الصوت صادرا من أعماقه هو .. فلما فتح عينيه .. استغفر الله وتهد وقرأ آية
الكرسى ونام .

فى شبابه تصرف كما يتصرف العشاق .. وفى شيخوخته تصرف كما
يتصرف الآباء ، فأين الحقيقة بين الاثنين ؟

العشر بم القديم

يعتبر الدور السابع في العمارة الضخمة القائمة وسط الميدان هو نهاية الخط بالنسبة لحركة المصعد القديم .. لذلك فإن سكان الدور الثامن يجدون أنفسهم مضطرين لمواصلة صعودهم بواسطة السلم الحجري الضيق الذي يفضى أخيرا إلى سطح واسع الأرجاء هو ظهر العمارة . مبلط ببلاط غير مصقول كبير القطع تنعكس عليه أشعة الشمس وقت الصيف كما تنعكس على « الملاحات » .. وقد يتخلف ماء المطر في بعض زواياه شتاء .. وتجد فيه رياح شهر أمشير ملعبا حسنا حيث تدور بما قد يخلفه من فضلات سكان الحجرات المرصوفة على خط مستقيم لتطل كلها على الميدان .

وفي الليل ، عندما يكون الفصل شتاء أو الوقت متأخرا ، لا تستطيع أن تمنع القشعريرة التي تسرى في بدنك إذا ألقيت بالنظرة الأولى على السطح وأنت عند نهاية السلم .. يحيل إليك أن قوى خفية تتربص فيه خصوصا إذا كانت أبواب الحجرات مغلقة . وذلك لأنك في خلاء حقيقي يشبه الصحراء وهو خلاء الجو فكل النوافذ والسطوح والناس والحركة تحت .. تحت جدا . أما سكان هذه الغرف فهم من الطبقة الفقيرة التي تمتاز بالطموح .. وتأنف من قيادة الأحياء الوطنية وتفضل الحجرة الواحدة النظيفة على الشقة المسقوفة بالخشب ذات الشراعات الزجاجية والأبواب العالية .. ويندر أن يكون بين هذه الطبقة التي تختار سطوح العمارات أصحاب أولاد . معظمهم من الطلبة أو موظفي الدرجة الثامنة العزاب الأنيقون أو من العمال حديثي السن الذين يضعون بند المسكن في الاعتبار الأول من ميزانية الدخل .

وأنا أعرف من سكان هذا السطح ثلاثة :

أولهم طالب قصير ربعة في زهرة عمره . في عمق عينيه أشياء لا يمكن أن يدرك مغزاها . بالغ اليقظة وإن بدا في عينيه الشرود . فيه علامات مميزة هي شعره الكث الغليظ البنى اللون كأنه تبغ مفروم . يحمل إبطه حقيبة ونحرايط ملفوفة ومسطرة طويلة مما يدل على أنه طالب في الهندسة .. وقلما يكلم أحدا وهو في المصعد لكنه يتفرس الوجوه كأنه يرسمها .

والثاني .. فتاة سمراء جافة فقيرة .. لا تتناسب بتاتا مع بشرتها الكاكية تلك الألوان الزاهية التي تختارها للملابس . ولعلها عاملة في مشغل أو مصنع حلوى .. وتسكن مع أمها المسنة في إحدى الحجرات .

أما الثالث فهو شاب أتيق لا يعين وجهه نوع وظيفته .. يخرج وقت الصباح وفي يده حقيبة ويعود بعد وقت من الليل . على شفته السفلى صفة المترفع ولو أن الوداعة تبدو عامة على مظهره . ولم أستطع أن أعرف مهنته بالضبط لكنني رجحت أنه طالب في كلية الطب .

ثم عدت فاستبعدت هذا الخاطر عندما رأيت زوجته ، فرجح لدى أنه عامل . فقد كانت فتاة من بنات البلد من النوع الذي تتركز ملذات الحياة في نظره — في خلوة الليل . ومعظم الأعمال التي تؤديها في النهاية تكون في خدمة تلك الساعات المنتظرة . شديدة العناية بنفسها كأنها لا تزال عروسا .. ممطوطة العود تتلوى كأنها حية ، وكانت تؤنس ساعات وحدتها بالغناء في حجرتها أو تتسلى بالإشراف على الشارع من إحدى زوايا السطح البعيدة .. تفوح منها دائما رائحة « الفل » وقلما تراها وفمها خاليا من « اللبان » .

وإذا تصادف واعترض طريقها أحد الطلبة من سكان السطوح وشرح لها

رغبته بنظرة ، زحزحته عن طريقها بنظرة .. قاسية ، لكنها عامرة بالأنوثة .
لذلك لم يسمع عنها أحد ما يريب .

وظلت سيرتها في نقاوة « الفل » الذي تفضل عطره باستمرار .
وظلت هذه المرأة اللينة المطمعة المخيفة حلم كل الذين يسكنون السطح .
وحسدتها الأم العجوز التي تقيم مع بنتها وتمنت لو أن عينها من العيون التي تلتف
حولها شغلت بيتها يوما ما .

ثم عرفت أن ذلك الشاب الأنيق زوج الحسنة يشتغل حلاقا . رأيت
مصادفة جالسا على باب أحد الصالونات في شارع رئيسي ، عليه معطف
أبيض كأنه طيب . وفي يده صحيفة الصباح يطالع فيها أخبار السينما . وكان
مشغولا بما يقرأ فلم يلاحظ مروري عليه . وتذكرت زوجته التي تظل وحيدة
طول النهار ثم تستقبله أول الليل ، ثم تودعه في الصباح وهكذا ..

ثم علمت بعد مدة أنه انتقل من مسكنه . وعلمت بعد مدة أن طالب
الهندسة سكن في إحدى الضواحي .. وعلمت بعد مدة ثالثة أن العاملة
السمراء الجافة العود انتقلت إلى حي الحسين .. وكدت أنسى هؤلاء الناس
ولعل بعضهم كاد ينسى بعضا إلا الأسطى الحلاق فإنه ظل يذكرهم جميعا .
كان جالسا ذات يوم أمام باب الصالون وفي يده جريدة فأفاق على صوت
امرأة تناديه باسمه ، ورفع إليها بصره فأدرك أنه يعرفها . إنها جارتها السمراء
الجافة التي تسكن مع أمها .. قال مبهوتا :

— خيرا يا سيدتي ؟

— خيرا .. كلمة بسيطة من فضلك .

وسار معها ، ظن بعض زملائه أن في الأمر غراما وأن للناس فيما يعشقون
مذاهب . فأخذوا ينكتون في الوقت الذي كان هو فيه يكاد أن يبكي :

— قولى كلاما غير هذا يا سيدتى .

— ما الداعى لأن أكذب عليك ؟ راقبها تعرف الأمر بنفسك .

— أشكرك .

وشيوعها بنظرة ساخطة ، ودعا عليها أن تكون طعاما لأول ترام يلقاها .
وفى ذلك اليوم نخيل إليه أنه على وشك أن يذبح كل شاب يجلس أمامه على
الكرسى إذا ما وضع « الموسيقى » على عنقه . نقمة عامة كنقمة آلهة اليونان فى
الأساطير حين كانوا يسخرون الرياح للتخريب . وحاول أن يكون مع
زوجته أكثر من عادى فى الليالى التالية :

ورأى من الزوجة الحسناء أكثر مما كان يرى من قبل . كانت لا تدع فى
الخلية شهيدا إلا بذلته له . وكان يؤخذ بالحللوة ثم يذكر الوشاية المريعة التى
نقلتها إليه الفتاة السمراء ثم تنهد فى أسى .

وقابله فى السطوح صباح يوم طالب الهندسة بعوده المربع وعينيه
الذاهلتين وشعره البنى الذى يشبه الدخان المفرور . فنخيل إليه أن ينقض عليه
ويزهق روحه ثم يستريح .

وانتفض الزوج فجأة ذات ليلة وهو فى عمله وقرر الذهاب إلى البيت .
كادت إحدى السيارات تدمه وهو يعبر الشارع .. وقال له عربجى كارو :
« حاسب يا حمار » .. ولعنته سيدة أنيقة حين صدمها بكتفه . كل ذلك وهو
لا يشعر .

وصعد السلم الحجرى لاهثا يتلصص .

كان مقدرًا أنه سيرى شيئا ما فور وصوله .

وكان الوقت ليلا والفصل خريفا وفى الجو رطوبة قليلة منعمش كجرعة
الخمر . وعلى رأس السلم وقف يتلفت فرأى فى الزاوية البعيدة للسطح المربع

شبهين منطبعين على السماء كما تنطبع الأشياء على الأفق . وكانا في عناق . ثم انفصلا واتكأ على السور ينظران إلى تحت . ولما اقترب منهما أحسا بوقع أقدامه وفاحت في الظلام من امرأته رائحة الفل فلم يسأل من هناك لأنه عرفها .

وأمسك بتلابيبها يقودها إلى الغرفة الواقعة في نهاية السطح . وكان الآخر يجرى نحو الشارع وسمع دبدبة أقدامه وهو يهبط السلم الحجري . ولم يكن هناك نقاش طويل .. كان يلكمها وهي تستعطفه بنظراتها . ويكيل لها السباب وهي تشجعه على ذلك . ولما قسا على عودها الطرى وأوسعها بدل الخنان ذلا تخلصت وانسحبت إلى مكان بعيد وهي تقول له : — أنا أستحق .. لكنك مثلت بي .. سأريحك .

ورآها تحاول أن تشعل في نفسها النار فلم يصدق .. لكن المحاولة صارت حقيقة بعد دقائق .. وجرت الأمور بأسرع مما كان يتصور سكان هذا السطح من الحجرات .

وقررت في المستشفى أن موقد الجاز اشتعل فيها ، ثم ماتت وهي تستغفره .

ولم يستطع الشاب أن ينساها ولا أن ينسى الفتاة السمراء التي كانت تحاول إغراء الطالب ، فلما فشلت حاولت أن تسجل نجاحا في ميدان آخر ، ولم ينس السطح الواسع ولا خلاءه المربع ولا رائحة الليل يشوبها شذى الفل وشبهين منطبعين على أديم السماء في العناق القصير .



وبعد ثلاث سنوات من هذه الحادثة كان طبيعيا أن تتغير الأشياء .. ويصبح الطالب مهندسا .. ويعرض للزوج في الطريق نساء يذكرنه بالزواج

وبالتى فقدتها في وقت واحد .. لكنه يظل بلا زوجة .
ثم تحركت الذكريات فجأة بظهور محورها الأول .
وجده أمامه وجهها لوجه . بشعره الكث الغليظ البنى الذى يشبه التبغ
المفروم . ومن عجيب الصدف أن « دور العمل » يحتم على الغريم أن يجلس
أمام غريمه .

وجعل كل منهما يسترق النظر إلى صاحبه خلال المرآة .. وضربات
المقصد في يد الزوج تنبئ عن القلق . والشعر البنى الكث الثقيل كأنه
مستعص على التهذيب وفي الوقت الذى فتح فيه المهندس مجلة أسبوعية يقرأ فيها
قصة حب ورائحة فل تفوح من منديله ، كان غريمه يسترجع تفاصيل
الحوادث :

« لقد تسلسل هذا إلى هنائنا فأفسده كما تسلسل الدودة إلى الثمرة .. » .
وانبعثت من الراديو موسيقى حماسية جعلته يحرك إحدى قدميه بطريقة
توائم اللحن .. وحتى ضربات المقصد أخذت تزداد حدة .. ثم رجع
لأفكاره :

« هي .. ماتت » .
ورأى نفسه يخط شفثيه ويهز كتفه . وألقى نظرة على الصفحة في يد المهندس
فألفاه لا يزال منهمكا في قصة الحب .
فعاد يقول :

« آه .. يظهر أن قصص الحب في حياته لا تنتهى أبدا .. كلها خراب ..
والغريب أنه يفر .. هي ماتت وأنا .. شقيت .. وهو .. » .
ومط شفثه وهز كتفيه مرة أخرى ورأى خيال نفسه في المرآة على هذه
الحال . أما الثانى فلم يغير وضعه . نفس البرود والهدوء والشروء في العينين

وقصة الحب في يده .
وبعد الموسيقى . انبعث صوت نشيد . فيه أصوات غليظة كأنما شريحتها
الحماسة . ودقات كأنها طبل من بعيد .
وملأ الحماس نفس الغريم ، و « الموسيقى » في يده والذكرى في رأسه
والصالون تحال إلا منهما . نخلت كل الكراسي إلا من المهندس ، وأخيرا نطق
الحلاق :

— ازيك يا باشمهندس .

فرفع إليه عينا قوية . وعاد إلى قصة الحب يكمل قراءتها . قال الحلاق :

— ألا تذكرني ؟

فرد عليه باكرات قليل :

— ربما .. لا .

كان يجرى « الموسيقى » على عنقه من الخلف . فسأله :

— ولا .. هي ؟

— لا .

ولا السطوح ؟

— لا .

فهمس في أذنه بشيء من الخدة :

— هيه .. بعد أن انتهى سأذكرك بكل شيء .

وانقطعت الموسيقى من الراديو .. فصمت كأنه مات .. وقبل ذلك
بوهلة دخل الناس وأخذت العيون تتلفت في حذر وترقب .. وما أن فرغ
المهندس من لبس سترته حتى كان الظلام يسود الشارع وصفارة الإنذار تردد
صوتا متقطعا رهيبا .. وأصوات أبواب المتاجر كلها تقرقع وهي تشد إلى

تحت .

وكان الجالسون يقولون : إن فرقا من قوات الشعب ستسافر غدا إلى الشمال . إلى منطقة القنال لأن قتالا يوشك أن يقع . وتذكر الحلاق بذلته الكاكي وبندقيته البيضاء والموسيقى العسكرية تشدو أمام الفرقة وناسا يحاولون أن يهبطوا أرض مصر ويجب أن يقتلوا ..

فألقي على المهندس نظرة فاترة وهو يخرج متسللا من الباب ، إنه عرف في هذه اللحظة أين يكون الغريم الأول .

شِرَارَةٌ نَازِ

في الطريق إلى السوق لم يكن الزوج يحكى أى حكاية ..
كان صامتا على غير عادته .. يسبق امرأته بعدة خطوات .. والشمس لم
تشرق بعد ، وجماعات من العصافير نهبها الدفء تسف على الحقول .. تطير
بها فرحة لعلها لم تكن في قلب المرأة ..

لقد كانت تتعارك مع زوجها طول الليل .. بسبب ذكريات عميقة من
الخير أن تنسى .. استرجعتها وهي سائرة فأحست بطعم الملح في حلقها لأنها
شرقت بالدموع .

كان هو لا يزال أمامها . ترقبه عيناها بوله وحب على الرغم من القسوة
التي أحالت فراشها إلى شوك .. وظلت طول الليل وهو نائم تبكى في صمت
وتعد أخشاب السقف ، حتى سمعت صياح الديوك فنهضت قبل أن يتسلل
النور وأيقظته ليذهبا معا إلى السوق .

وعندما وصلت أفكارها إلى هذا الحد كانا قد وصلا إلى منبرج طريق ،
وقابلها شخص يعرفهما فألقى عليهما تحية الصباح ثم وقف وسلم ، وأحست
الزوجة وهو يضغط على كفها وينظر في عينيها أن على شفته سؤالا من المحال
أن يتجسم . كان يسألها :

« هل أنت سعيدة ؟ »

وانصرف الرجل وواصل الزوجان سيرهما .. وعادت هي بأفكارها إلى
الليلة الماضية عندما وضعت العشاء أمامه وهي مليئة باللهفة . فطير من القمح
الجديد وطبق ملآن بالعسل ، وجلست تأكل .. لكنها أحست وهي تجاذبه

الحديث أن شيما غامضا يظلل عليه . ولم تعره اهتماما كبيرا في بادىء الأمر فقد قدرت أن المفتاح السحري الذى تديره المرأة فى قلب كل رجل قادر على أن يزحزح الرصد فيتوهج الحب ويملأ المكان عطر غامض ، كالذى يدخل عليهما من المصراع المفتوح من النافذة عندما يتقدم الليل فيسألها وتسأله عن مصدر العطر وهما لا يعلمان أنه من داخلهما .

أما فى الليلة الماضية فقد كان الزوج يأكل وهو واجم . وبدت عملية الطعام ثقيلة جافة ، ولكنها هى التى أخذت تفتح باب الحديث . فقالت وهى تتكلف ابتسامه :

« هل تعلم يا صادق أنى ارتكبت جريمة صباح اليوم ١٩ » .

و لم يتوقف عن المضغ و لم يقل شيما ، كل ما عمله ساعتذ أن نظر إليها بعينين نصف مغمضتين تشيع منهما نظرة ملامة قوية قصيرة الأمد ، أشبه شىء بقبضة جبارة دفعت بها إلى الورااء ولو أن اللقمة التى كانت بيدها كانت مغموسة فى العسل فقد أحست عكس ذلك .. لكنها قررت أن تقاوم فتركت ابتسامتها تتحول إلى ضحكة فيها مرح و وعد ونبرة حب . ثم استطردت تقول :

— لم تسألنى يا حبيبى أى جريمة ارتكبتها .. ألا يجب أن تسأل ؟

فرد بلا مبالاة :

— قولى ا

فقالت وقد أحست بأن قلبها ينقبض :

— جلاببك الصوفى القديم احترق اليوم فى عدة مواضع من شرارة نار .

فردد آخر كلماتها :

— من شرارة نار ١٩

— نعم .. من شرارة نار !!

— هيه ..

واستطرد يمضغ . لم يتكلم . كان يغمس الفطيرة في العسل ويقذف به إلى فمه وهي تنظر وتسمع صوت المضغ . وأحسست أن هذا شيء بشع . ولأول مرة أدركت القروية بما لا يمكن تفسيره أن مراقبة من يأكل عمل كريبه . قد لا يحس المرء كراهيته وهو يراقب بقرة مثلاً . وكان الصمت شاملاً كأن كل الأفواه في القرية مشغولة بالأكل فلا وقت للكلام . أو كأن الناس نائمون . وزفرق طائر محتق على شجرة قريبة تفهم الأذن العادية من صوته أن أقوى منه قد سطا عليه . وتهدت الزوجة وهتفت تسأل :

— صادق .. هل أحزنك هذا الأمر ؟

ولم يجيبها منه إلا صوت المضغ .. ثم كركرة الماء وهو يتدفق إلى فمه من القلة التي يشرب منها . وعاود الأكل فأحسست أنه من الضروري أن تحذر :

— صادق .. كان الجلباب بين الملابس التي يستغسل على مقربة من الكانون .. وفجأة .. فرقع في النار شيء .. خفت .. جريت بعيداً .. أحسست أن إحدى عيني ستذهب إن بقيت في مكاني ، خفت يا صادق .. آ .. ألا تسمع ١٩ .

— سامع !!

— آ .. خفت أن تكون رصاصاً قد دسبت في الوقود .. كانت قطعة من الحجر أو الملح في النار .. ونسيت كل شيء .. وبعد مدة اكتشفت أن شرارة سقطت في طيات الثوب .. آه .. آ ..

ولما لم يرد انبثقت منها ضحكة طويلة .. هستيرية تغلب بها على المأسى .

ولكن الزوج لم يخرج من جموده . وظللت وجهه كآبة سوداء . وشعرت
الزوجة كأنها أمام رجل غريب . ولكنها أحست بين هذه المخاوف بفرحة
شوهاء . فرحة من تكاد توقن بأن إعراض زوجها لهذا السبب التي قصت
قصته لا لسبب خارجي ربما كان أخطر وهي التي .. وهي التي ..
وكفت عن التفكير وسكتت . لكن الزوج تكلم محتجا :
— يعني .. احترق الجلباب !
— إنه قديم . .

— ها ها ها اى .. قديم ١٩ .. ومن قال إن القديم رخيص ١٩ ! وأشار
بيديه معا إشارة مخزية « القديم غال ١١

— « القديم غال ١٩ » .

سألت نفسها ورددتها وهي سائرة خلفه على الطريق ذاهبين إلى السوق
« إنه أهاننى » وكانت تلذف الدمع من جديد « إن الدليل الحاسم على
الإخلاص شيء لا وجود له . كيف أثبت لصادق أنني أحبه .. آه .. هذا
ذنبى » ثم جرها من أفكارها صوته وهو يناديها : « لقد قاربنا دخول
السوق » .. وعندئذ سارت إلى جواره . كان ذلك ضروريا حتى لا تتوه منه
أو يتوه منها . وأوصته بهمس عذب أن يحترس فقى جيئه أربعون جنيا ثمن
البقرة التي سيشترونها اليوم . ولما دلغا إلى السوق استطاعت الزوجة لفترة
طويلة أن تنسى حوادث الليلة الماضية لأنها كانت تتأمل الوجوه الكثيرة التي
تردحم حولها في السوق .

(أشياء للذكرى)

ولم يدخل القرية ثانيا إلا بعد هبوط الظلام .. وكان التوفيق الظاهر في هذه الصفقة سببا في صفاء الليلة فنام الزوجان سعيدين ، واستيقظت هي في الصباح الباكر فحلبت اللبن وجهزت له فطورا شهيا بالسكر والحليب . وخرج هو لبعض شئونه وذهبت هي بالبقرة إلى الحقل .

ظلت ترعى طول النهار وتغنى . ولم يكن أحد يسمعها ، حتى وإن كان هناك من يسمعها فهي لا تراه تائهة بين أعواد الذرة تراقب جلبابها المشجر وجسمها النادى .. ذلك الذى فتن « صادق » .. ترنمت بأغنية حب .. آه .. كم تحبه .. وبلعت ريقها وتذكرت غضبه منذ ليلة حدثها حديثا ملفوفا عن الجلباب القديم .. « ماذا كان يقصد ١٩ .. ليس هذا .. إنسه غير معقول .. إنه يعلم أننى ضحيت من أجله هو .. يعلم أنه ليس أغلى منه » . وعادت تغنى بين أعواد الذرة وهى تجز الحشائش ، لكنها اختارت هذه المرة — بلا وعى — أغنية حزينة .

وانقضى اليوم .. ومالت الشمس إلى المغرب . وأخذت قوافل الماشية في العودة أمام الفلاحين إلى الدور .. وسحبت الزوجة بقرتها وعادت . لكن حدثا لم يخطر على بالها وقع فجأة : عندما كانت تعبر القنطرة المؤدية إلى القرية جمحت البقرة كما يجمع الثور ، وجاذبت الزوجة الحبل وأفلتت منها .. واستهانت الزوجة بالمسألة بادية الأمر .. ولكنها أحست بشعور غامض أنها أهم مما تتصور .. فقد كانت البقرة تجرى برعونة .

ولم يستطع أحد أن يحجزها ، فجرت هى وراءها حتى لا تضل عنها . وغابت فى أحد المتعرجات والليل يهبط ، فلم تدر الزوجة إلى أين ذهبت البقرة .

ومثل هذه الحوادث فى القرى ليست عظيمة الأهمية ، فإن العثور على

المفقود ممكن على أى حال . وبعد مدة أمكن للزوجة أن تستدل على مكانها ،
فقد دخلت إحدى الدور وكانت مفتوحة الباب والتفت حولها فلاح شاب
وأمه وأبوه وهم يهتفون ويصفقون بدهشة من رأى ميتا يبعث :

« أليست هذه بقرتنا .. تعالى يا أمى فأنت تعرفينها » .

ولمست الأم ضرعها وهتفت مؤكدة :

« يا إلهى .. لقد بعناها منذ سنة فكيف عرفت الطريق إلى دارنا؟ من هذا الذى
اشتراها من قريتنا ؟ بارك الله له فيها .. انظروا إلى الوفاء فى قلب
الحيوان .. » .

واستطردت الأم :

« تعال يا عبده فانظر الوفاء » .

وتهدأت تنهدا له معناه .

وعلى باب الدار كانت صاحبة البقرة واقفة بعد أن عرفت مكانها ، كانت
مترددة فى دق الباب تذرف دمعها فى صمت ، وتأتى إلى أذنها همسات غير
مسموعة من زوجها صادق : « القديم غال » . لقد قيل له إنها تكلمه فى
الطريق .. هذا الشاب صاحب هذه الدار كان صاحب هذه البقرة منذ سنة
وزوج هذه المرأة منذ سنتين ..

ثم أحبت « صادق » فهجرته هو وتزوجت حبيبها ثم باع البقرة فى السوق .
وما هى ذى قد اشترتها من جديد ، ولما سلكت الزوجة القديمة والبقرة القديمة
الطريق العام ، هربت البقرة إلى وطنها الأول ..

وكان على الزوجة أن تعمل شيئا ..

فتقدمت وطرقت الباب ، وخرج الزوج القديم والحماة وهى تحمل مصباحا
ريشيا وينظران فى لهفة إلى الطارق ، وعندما وقع بصرهما عليها شهقا فى صمت
ثم رجعا وقاداها إليها فسحبته بعنف ، ومشت البقرة تئن وتتلقت ، أما
الزوجة فقد كان قلبها ييكى .

باب العالم الجديد

لم أكن أتوقع أن هذا اليوم سيكون مشحونا بالعواطف، وأنا مهما امتد العمر بنا تستطيع حادثة صغيرة أن تعود بنا إلى الوراثة عشرات السنين ، فنعيش بكياننا كله واقعة يعيشها غيرنا ، ويستبد بنا الشعور إلى درجة يتلاشى فيها الإحساس بالذات . وهذا هو ما وقع لي بالذات صباح أمس وأنا أرتدى ملابسى للخروج إلى عملي ساعة الصباح ، وفي الحجره المقابلة المفتوحة الباب حوار مهم يأتي إلى بعضه ويغيب عنى معظمه . كان قائما بين ابني وزوجتى . تتخيله أحيانا ضحكات من الأم وحيننا صوت تهديد .. وفي لحظات أخرى كنت أسمع صوت ابني مستعظفا .. رقيقا حنوننا يلين الحجر . وفي لحظة تالية كنت أسمعه ضاحكا متحمسا يشوب حماسه خوف من يساق إلى القتال للمرة الأولى .

أما أنا فكثيرا ما كنت أتجمد أمام المرأة وأنسى نفسى .. أنسى أنني ألبس لأذهب إلى عملي ، لأن قلبي كان يتابع الحوادث في الحجره القرية .. ثم انتهيت من عملي بشكل ما وجلست في الصلاة أنتظر ابني وأنا أحلق في عداد النور و « مسيحة » نسيتهما أمى على أحد الكراسي من الليلة الماضية . وخرجت من الحجره البعيدة في الشقة زوجتى بملابس البيت وهى ممسكة بذراع ابني . وقابلتهما بنظراتى وأنا أتأهب للقيام وأنظر في ساعة معصمى بقلق حتى لا أتأخر عن عملي .. وكانت زوجتى تكتم ضحكها وكان ابني يحبس دموعه ولو أنني لاحظت على أحد خديه قطرة من الدموع مثل حبة من الندى نسى أن يمسحها قبل خروجه .

وامتزجت في تصرفاتي الصرامة بالحب والقسوة بالحنان في الوهلة التي مددت يدي إلى ابني لنخرج معا . ورفع إلى يديه وهو جامد لا يتحرك ووضع يديه الاثنتين في جيوبه ولم يتحرك .. كنا واقفين عند الباب نؤلف نحن الثلاثة دائرة إن أمكن ذلك .. ورأيت في عينيه السوداوين توسلا لم أره في حياتي ، أحسست أن قلبي قد استجاب له ألف مرة ولو أن الحياة ترفضه بعنف .. وعضت زوجتي شفتها بأسنانها في أزمة عاطفية وتركتنا ودخلت . وبقيت أنا وهو وجها لوجه .. عيناه ترسلان توسلا يستجيب له قلبي وترفضه الحياة ، كل ملامحه تنذر بقرب البكاء .. وبدا الضعف والقوة على وجه الطفل في هذه اللحظة كسلاح جارح يدعوننا لأن نقبله ، وناديته فلم يرد . ومددت إليه يدي فلم يمد لي يدا . فأخذت أتأمل فرحة الأمس وترحة اليوم .. عندما ذهبت أنا وهو لشراء الملابس الجديدة اللازمة للمدرسة وكان يلبسها كل يوم مرتين ويقف أمام المرآة ويتبختر في فرحة انتظار العيد .. المريلة ذات الحزام والقميص الأبيض .. كانت كل هذه الأشياء بالنسبة إليه فاتنة جدا حتى أمس .. أما في هذا الصباح فقد صارت مثل عدة الحرب .. وناديته ثانيا فلم يرد . فقلت له لكي أغريه : « ألا تحب أن تكون رجلا مثل بابا وتلبس البنطلون وتحمل ساعة ؟ » .

أثرت في نفسه هذه الأمانى التي طالما تمنّاها طوال الصيف على أمل أن تفيدني في حل الأزمة ويتحرك للذهاب إلى المدرسة لأول مرة في حياته . لكنه أنكّر كل هذا في عناد . وأعدت عليه السؤال فهز رأسه نقيا . فقلت له : « كل الأطفال يذهبون إلى المدرسة ليكبّروا ، وكل طفل لا يذهب إلى المدرسة لا يكبر أبدا . يظل طفلا قصيرا كل الحياة . ومستحيل أن يلبس البنطلون الطويل مثل بابا ، فما رأيك ؟ » .

وهنا بدأ التفكير في عينيه السوداوين ، وحرك شفتيه ولم يقل شيئا . ومد لي يده في صمت فاتجهنا إلى الباب .. وكانت أمه متوازية في أحد الأبواب تنظر من فتحته الحوادث الكبيرة . .. بالنسبة للطفل !! أما أمي فكانت لا تزال نائمة لأن آلام الروماتزم أرقتها طول الليل . وفي اللحظة التي كنا نتجه فيها إلى الباب .. أنا بأمل ، وابني باستسلامه ، جاءت من الداخل صيحة ملهوفة من أمي : « أحمد !! .. أحمد !! .. هل خرج أحمد قبل أن أراه ؟ » .

وفي هذه اللحظة تهاوى كل البناء .. فانسكبت الدموع التي كانت واقفة في عيون الطفل، وهتف من خلال شهقاته بطريقة أشعرتني أنني أشهر سلاحا قاتلا في وجه ولدي ، هتف أحمد : « الحقيني .. يا .. نينة !! » ثم أمسك في كرسي ثقيل لا يريد أن يتحرك . وجاءت من الداخل زوجتي مستغرقة في ضحكة هنية صافية ، فحملت الطفل إلى جدته التي لا تستطيع مغادرة الفراش ، وتبعتهما أنا إلى حجرة «المدالنة» هناك حيث تنام أمي . فوجدت أحمد يبلل خدها بدموعه ويعددها هو .. هو شخصيا بالجلسوى والشيكولاطة . فلما أحس أن جدته تراوغه نظر بعينه السوداوين كمن يفكر : وما لبث أن أشاح عني بصره حين رأى الأمل مفقودا عندي . وصعد إلى فراش جدته وطوق عنقها ثم أكب على أذنها يهمس لها بما لم نسمعه ، همسات كانت تقطعها الشهقات استغرقت بعدها أمي في ضحك شديد واحتضنت الطفل تقبله حتى كادت تكتم أنفاسه ، ثم باحت لنا بالسر من خلال دموعها وضحكها :

« سيفعل لي ما عجز أبوه عن فعله ، سيدفع لي نفقات الحج ، بشرط ألا أدعكم تذهبون به إلى المدرسة » .

وأمسكت أنا بيده بقوة واتجهت به إلى الباب ، وهناك قبل اللحظة الحاسمة .. قبل أن نقفل وراءنا باب الشقة الذي يمثل عالمه بأسره ، طلب مني أن يقبل أمه ، وكنت متصورا ماذا سيحدث ، لكنني لم أجد مقرا من التسليم ، وما لبثت القبلة أن تحولت إلى عناق أشبه بالحصار الذي لا يفك . وأملى الطفل علينا شروطا جديدة هي أن تذهب أمه معنا .. لا بد أن نذهب إلى المدرسة نحن الثلاثة ، وبدأ يسكب دموعه في صمت ، في استغراق كاستغراق الكبار حين يعتقدون أن الحديث عن المأساة معاد ، وأنه لا شيء يجدي إلا الدموع .

ودخلنا إلى الصالة وليست أمه لنخرج . وأمسك كل منا بكف من يديه الصغيرتين وسار بيننا يتلفت .. ينظر إلى الحوائط كأن عليها رسوما لا تراها . وعند باب الشقة وهو بين أبيه وأمّه وقف من جديد ونظر إلى الداخل ولعت نظراته بمعان كبيرة .. كبيرة بمقياس الإحساس وكبيرة بمقياس السن . وتنادى أحمد مثل رجل مكتمل الرجولة بصوت مرتفع شرخته الدموع نادى على أمي وهو واقف بيني وبين أمه :

— « نينة .. نينة !! » .

فجاء ردها من الداخل مرتجفا جائشا حنوناً :

— « نعم يا حبيبي » !

— « أنا مخلصك .. مخلصك » .

فلم يأتنا رد . فنظر إلى وجهي ثم إلى وجه أمه ، وقال بإصرار شديد :

— « يا للاباه » .

ونحطنا إلى خارج الشقة بين أبويه وأقفلنا وراءنا الباب .. باب شقتنا في نظرنا وباب العالم في مقياس الصغير .. وكان يحبط الأرض بحذاته في كل

خطوة كأنه يؤكد لنفسه أنه يتقدم .. يمشى .. إلى عالم جديد لا يشجع مثله
أن غيره قد ذهبوا إليه ويذهبون كل يوم !! .

لم نكن نتكلم ، لا أنا ولا هي ولا الطفل ، كان الصمت أضمن بلا أدنى
شك ، وكنت واثقا أن المشكلة لم تنته بعد . ستتجدد المتاعب عند باب
المدرسة .

لكن الدهول الذي كسا وجه الطفل من المجموع الذي كان يطن كالنحل
في الخلية لم يترك له فرصة للخوف ولا الاحتجاج ولا الهرب ولا حتى مجرد
الكلام ، نعم واعتراى إحساس مثل إحساسه وأنا أخوض بين هذه الأزهار
وأأمل وجوه بنين وبنات سيمسكون بدفة المستقبل حين أكون أنا وأمه
وجيلي وجيلها في فراش الشيخوخة .

وسمعنا أطفالا تبيكى لكن الغريب في الأمر أن أحمد كف عن البكاء .. لم
أستطع أن أستشف حقيقة نفسه وهو يغالب نوازعه ، لكننى أدركت أن شيئا
واحدا هو الذى ألبأه إلى هذا الموقف .. وهو أن حصنه الكبير كف عن
الدفاع .. جدته .. أسلمته بيدها للمدرسة على الرغم من تكلفه لها بتفقات
الحجج .

وعندما دخل باب الفصل قبلناه أنا وأمه . كان هو صامتا .. تبادلنا
الموقف ، تحولنا إلى أطفال .. كادت دموعنا تغلبنا .. فجاولت أنا أن ألون
الموقف بلون مفرح فسألته :

— هل تريد شيئا يا أحمد ؟

فهز رأسه بكبرياء من ستم من نفاق الناس ، وقال هامسا :

— لا ..

فقلت له :

— عال .. مع السلامة !! .

وضحكنا وعيوننا تدمع أنا وزوجتي .

وهناك .. هناك في المكتب سألتني رئيسي :

— لماذا تأخرت ؟!

فقلت له مبتسما معتذرا :

— كنت أنقل اسم ابني من دفتر لدفتر .

فزاد وجهه استفهاما .. فاستطردت :

— كنت أنقل اسمه من دفتر غير المسئولين .. إلى دفتر المسئولين .. لقد

دخلت باب الحياة ، من باب المدرسة ..

فابتسم ..

الفهرست

صفحة	
٥	أشياء للذكرى
١٧	أجنحة الحب
٥٣	هكذا أبدا
٦٣	خطيئة وغفران
٩٧	الطالع السعيد
١٠٧	أربعة أجنحة
١١٩	الوسام
١٢٧	سنوات عشناها
١٣٧	رسالة الغرام
١٤٧	الغريم القديم
١٥٧	شرارة نار
١٦٥	باب العالم الجديد

مؤلفات الأستاذ محمد عبد الحلیم عبد الله

« ولكن يمكن الجزم منذ الآن فصاعدا بأن محمد عبد الحلیم عبد الله قد فرض نفسه كروائي لدلتنا مصر ؛ إنه روائي الدلتا المصرية ، أى ذلك المثلث الأخضر المعلق على خريطة القطر بواسطة أكبر مدينتين فى قارة أفريقيا ، فمن البحر الأبيض المتوسط حتى جبل المقطم ، يسبح عبد الحلیم عبد الله لتلك الأرض الخضراء الخصبة المليئة بالخيرات والمتناقضات أيضا : الإسكندرية والقاهرة والريف المزدهم وقد سقاها النيل .. إنه روائي الدلتا الداخلية ؛ لأنه يقودنا إلى داخل الإنسان ، سوف تكتشف فى أعماله صفحات تصف الشواطئ التى تقصفها الرياح ورمالا ساخنة هجرها الحب ، غير أنه يضىء على الإنسان قوة رائعة وسخية تسرى فيه كالنيل الذى يهب الحياة » .

من دراسة للمستشرق جوردان مونو

ترجمة سمير وهبى

- لقيطة (ليلة غرام) : جائزة المجمع اللغوى لأحسن قصة ، جائزة وزارة الشؤون لأحسن فيلم ، ترجمت إلى الفارسية .
- بعد الغروب : قصة الفقير الموهوب يشق طريقه بالفأس فى الصخور . جائزة وزارة التربية والتعليم .
- شجرة اللبلاب : قصة عذراء أهدت قلبها لشاب متردد شكاك . ترجمت إلى الإنجليزية .
- شمس الخريف : ماذا تأخذ منا الحياة ؟ وماذا تعطى ؟ ، جائزة الدولة فى الأدب .

- غصن الزيتون : لا تجعلنا نحب من لا يحبوننا حتى لا نشقينا
بالحب مرتين يا إلهي . ترجم إلى الصينية .
- الماضي لا يعود : (مجموعة أقاصيص)
- من أجل ولدي : قصة الحب العائلي والمرأة في صورها الأربع :
أما ، وزوجة ، وحبية ، وعشيقة .
- ألوان من السعادة : (مجموعة أقاصيص) —
- الوشاح الأبيض : قصة حب جميل .. ولكن هل حققت
الأيام منى المحبين ؟
- سكون العاصفة : (قصة طويلة)
- الضفيرة السوداء : (مجموعة أقاصيص)
- اللجنة العذراء : (مجموعة أقاصيص)
- أشياء للذكور : (مجموعة أقاصيص)
- خيوط النور : (مجموعة أقاصيص)
- حافة الجريمة : (مجموعة أقاصيص)
- الباحث عن الحقيقة : (قصة طويلة)
- البيت الصامت : (قصة طويلة)
- أسطورة من كتاب الحب : (مجموعة أقاصيص)
- للزمن بقية : (قصة طويلة)
- النافذة الغربية : (مجموعة أقاصيص)
- جوليت فوق سطح القمر : (مجموعة أقاصيص)
- قصة لم تتم : (قصة طويلة)
- الدموع الخرساء : (مجموعة أقاصيص)
- لقاء بين جيلين : (لقاء المؤلف مع عمالقة القصة)
- الوجه الآخر : (كاتب القصة الناقد)

رقم الإيداع ٢٠١٩

الترقيم الدولي ٨ - ٢٠٢ - ٣١٦ - ٩٧٧

مكتبة مهين
٣ شارع كوسموني، النجف



اللمن ٣٧٥ قرشا

دار مصدر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

To: www.al-mostafa.com